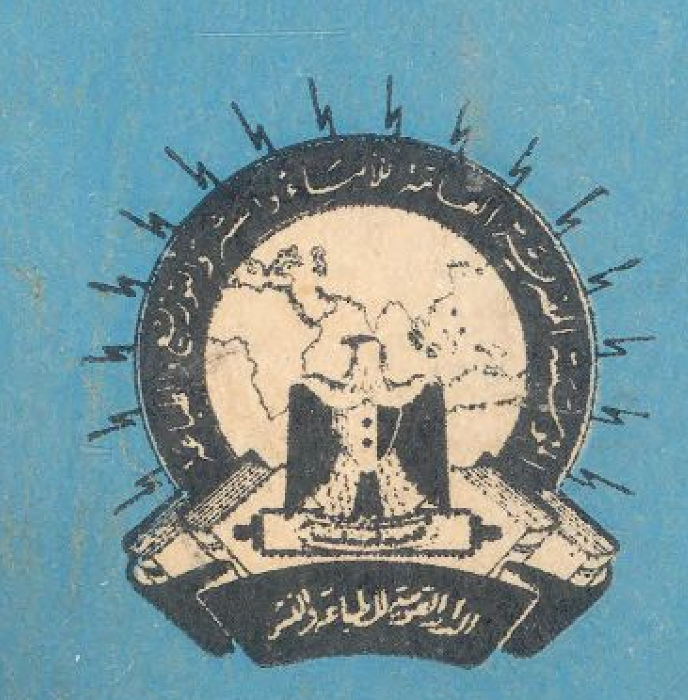
مذاهب وشخصيات



جميلة بوباشا

بقلم
سيمون دى بوفوار
جيزيل حليمى

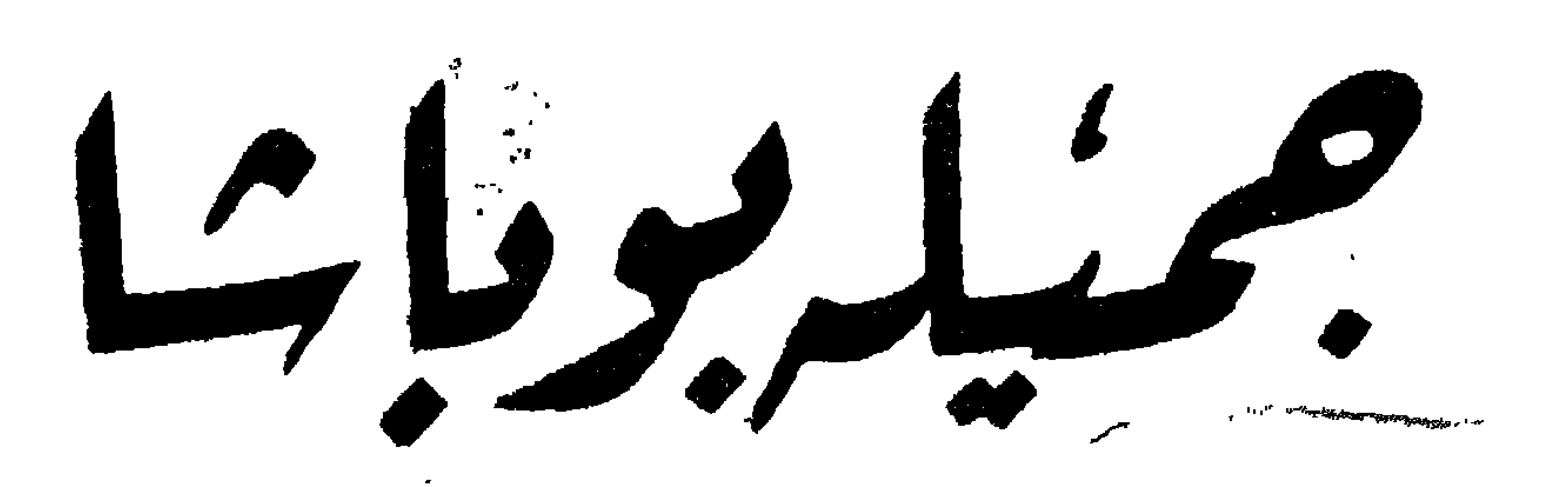
8.12.61



تعريب
فاطمة عبدالله محمود

مذاهب وشخصيات

مأساة تعذيب



بقلم
سيمون دي بوفوار
جيزيل حليمي

تعريب
فاطمة عبدالله محمود

تمهيد

بقلم سيمون دى بوفوار

فتاة جزائرية فى ربيعها العشرين .. عضو فى جبهة التحريرالوطنى .. قبض عليها .. واودعت غياهب السجن .. واعتدى رجال البوليس الفرنسى على عفافها بواسطة عنق زجاجة .. هل فى هذا الامر شىء من الغرابة والعجب ؟ .. طبعا لا .. انه شىء طبيعى جدا فنحن معشر الفرنسيين شركاء منذ عام ١٩٥٤ فى ارتكاب جرائم القتل البشعة .. منذ ذلك الحين قتل اكثر من مليون ضحية تحت ستار غاشم خادع اسمه : مقاومة الثورة أو قمع التمرد ..

وبواسطة هذا السلام الغاشم فتك بآلاف الرجال الابرياء والنساء العزل والشيوخ والاطفال الضعفاء الذين لاحول لهم ولا قوة ..

تحت هذا القناع الاستعمارى الضارى احرقت قرى كاملة بكل مافيها من آدميين أحياء وقطعت أوصال الوطنيين الثوار وذبح مئات الآلاف منهم . اخترقتا احشاءهم بأطراف البنادق وعذبوا عذابا فريدا فى بشاعته وضراوته لقد ارتكبنا كل ذلك فى حق الشعب الجزائرى المناضل من أجل حريته واستقلاله .. فهل من المستغرب بعدئذ أن يبدو خبر تعذيب الفتاة المذكورة بمثل هذه الوحشية التى تبعث الاشمئزاز .. هل من المستغرب بعد كل ذلك أن ننظر لهذا الخبر على انه خبر عادى جدا .. لايثير أى دهشة أو استغراب ؟ !

ويلاحظ فى تلك الاونة الاخيرة أن الصحافة العالمية قامت مرة واحدة واخذت تشير بأصبع الاتهام الى وجه فرنسا بسبب ماتقترفه من أعمال شائنة وانتهاك لحرمة الانسانية فى أرض الجزائر .

أخذت تفند دون هوادة أو رحمة ، ما اقترفناه من جرائم وحشية فى حق الجزائريين بينت للعالم اجمع تفاصيل المجازر الهمجية التى تقوم بها فرنسا لابادة افراد الشعب الجزائرى ووضحت للبشر العمليات الرهيبة التى تقوم بها فرنسا فى الجزائر لاقتناص وقتل الآدميين الابرياء الذين لم يقترفوا سوى انهم قاموا يطالبون بحريتهم واستقلالهم وكرامتهم من أيدى المحتلين الغاصبين ..

امتلأت صفحات الجرائد فى كافة انحاء العالم بصور بشعة تقشعر لهول مرآها الأبدان . صور تم التقاطها « سرا بالطبع » فى شوارع مدينة «وهران» بالجزائر وفى باريس ، وعلى ضفاف نهر السين العظيم ، صور لا تظهر فيها سوى الاشلاء الآدمية الممزقة .. والأحشاء المنزوعة والرقاب المعلقة فى أعالى الاشجار والعيون الجاحظة بنظرات مبتهلة مستنجدة .. والرءوس والاذرع والسيقان المعلقة لغرض معين فى اغصان الاشجار المتضوعة بالخضرة والحياة .. والرءوس الآدمية المهشمة التى يخرج منها كل ما تحتويه من مخ ودماء فائرة .. وجثث الجزائريين الابرياء التى تطفو دون هدف على سطح وضفاف نهر السين العظيم .. الذى عاصر أمجاد فرنسا المنادية بحرية الانسان وكرامته .. والذى شاهد الكثير من أحرار العالم وقادة الرأى الثائر من أمثال مونتسيسكو وجان دارك روسو !!

هل يعقل بعد كل ذلك ان يهزمنا أو يحرك خلجة من مشاعرنا هذا الخبر العادى الذى يفيد أن رجالنا العسكريين قاموا بتعذيب فتاة بريئة غضة حتى أوشكت على الموت ! .. هل يعقل ذلك ؟.. طبعا لا .. لا ....

بل اننا سنقول نفس الذى قاله المسيو باتان رئيس لجنة الـ Sacu re gardi فى آخر اجتماع حضرته له : مادامت جميلة بوباشا حية فلا شك أن مالاقته من تعذيب وآلام لم يكن شديدا الى الدرجة اللازمة .. أنها على اية حال لم تمت بسبب ما أجراه عليها رجالنا الافذاذ من آخر وابشع مستحدثات التعذيب والضراوة ..

وفى هذا الكتاب تقوم الاستاذة المحامية القديرة « جيزل حاليمى » بسرد وقائع وأحداث قصة الفتاة المناضلة المجاهدة بكل ماتحتويه من اهوال وبشاعة ومروق تام عن أبسط قواعد الانسانية والرحمة ..

وهى اذ تفعل ذلك لاترمى مطلقا لمس قلوب من اقترفت أيديهم مثل هذه الافعال الدنيئة المقززة ، انها لاترمى الى ذلك مطلقا ، وكيف تفعل وهؤلاء المتهمون الذين ستخاطبهم مدام جيزل حاليمى .. قد نفدت من قلوبهم كل آثار الرحمة والانسانية والعدالة و .. الحياة ؟!

ولكى نوضح هنا وبأدق التفاصيل مدى الحذق والمهارة العجيبة التى يتمتع بها الفرنسيون فى تلفيق الحقائق الواقعة وتغليفها بستار كثيف من الخداع والغش والتضليل والادعاء انها تبين هنا مدى المواربة التى نهج الفرنسيون على منوالها طيلة سبع سنوات كاملة .. اى طوال المدة التى ساموا فى خلالها الشعب الجزائرى المناضل المكافح أعتى أنواع

التعذيب والاضطهاد والتضليل والغبن عندما وقف يطالب بحريتــه واســـتقلاله ..

ان المؤلفة تحاول في كتابها هذا أن تبذل اقصى طاقتها وجهدها لكشف الستر عما اقترفه الفرنسيون من جــرائم مروعة في حق الجــزائريين الاحــرار ..

ان اهم مايثير دهشتنا ونحن نطالع معا مأساة جميلة بوباشا مع الفرنسيين ، ليس ما اوقع بها من وسائل تعذيب واعتداء بشع بل كشف النقاب عنها وفضحهـــا ..

ثم هناك شيء أغرب من ذلك هو المحاولة الجريئة البـــاهرة التى ... لكشف ما تسترت وراءه هذه الجرائم من خداع وكذب انها محاولة جريئة قامت بها محامية شابة عنيدة . صارمة في شدة عنادها واصرارها على اظهارها الحقيقة وهى جيزل حاليمى ! ..

كل هذه العوامل الحيوية الفعالة ساعدت الى ابعد مدى على تبديد السحب القائمة التى حاول بها الفرنسيون أخفاء جريمتهم البشعـــة في حق جميـــلة بوباشا ..

والتصريح الاخير الذى القاه الجنرال « الليريه » القـــائد الاعلى للقوات الفرنسية فى الجزائر والذى عينه الرئيس ديجول هناك « قال هذا الجنرال : ان الجيش الفرنسي يهمه كثيرا الا يكشف القناع عن وجه الذين امروا باجراء عمليات التعذيب والاعتداء على المجاهدة الجزائرية جميـــلة ...

وهناك صور تتكرر كثيرا فيلقى القبض على أى جزائرى ويوســع ضربا وركلا وتعذيبا .. ويسقط المواطن الجزائرى بين الحيـــاة والموت وبه رمق ضئيل جداً من وميض الحياة وهنا اما أن يجهز عليه تماما .. أو يترك ليموت فى بطء . أو يرحمه الله فيتوصل الى طريقة ما للتخلص من كارثته وبذلك تختفى الجثة ومعها الجريمة .

وغالبا عندما يأتى احد اقرباء الضحية ليسأل عنه يجاب بهـــذا الجواب التقليدى « مختف » ثم يطبق الغموض والابهام الشديد بعـــد ذلك على كل شيء ..

واهم واقعة من هذه الوقائع هى حادثة الشاب الفرنسى الجامعى «أودن» كان هذا الشاب يؤمن بقضية الشعب الجزائرى المكافح ويشـــارك فى نضاله المستميت من أجل الحصول على استقلاله ثم .. اختفى ! ..
وبعدها بدأت الهمسات تتناقل من فم الى آخر . وتعالت الهمســـات حتى أصبحت كلمات .. وتضخمت الكلمات فغدت صيحات استنكار

واستبشاع وطبيعي الا يكون هنــــاك اى اثر أو فائدة من وراء هـــذه الصيحات لانقاذ الشـــاب الفرنسى الحر من المصير الذى كان ينتظـره على يد السفاحين . وكل ماعرفه الناس بعد ذلك هو أن الضابط الذى قام بعملية تعذيب هذا الشاب قد انعم عليه بوســـام الشرف تقديرا لتفوقه وجدارته فى عمليـــة تعذيب هـــذا الشـــاب وقتـله فى بطء وتفنن عجيبـــين !! ..

كمـــا ارتفعت كثير من أصوات الاحرار بعد أن عرف العـــالم التفاصيل المنكرة التى سبقت حادثة انتحار المجاهدالجزائرى «بومنجل» وكثير غير ذلك ذهبت هذه الصـــيحات اثره وتلك الاعترافات أدراج الرياح وكأنها لم تـــكن ..

وجهاز القضـــاء فى الجزائر يسير بطريقة فريدة من نوعهـــا ، فيلاحظ عندما تعرض قضية أحد الوطنيين الجزائريين ان كل من يقف أمامه من قضاة ومستشارين واطبـــاء ومحامين موقف العدو اللدود والحكم الموحد السارى على جميع الجزائريين الذين ترفع قضاياهم أمام محاكم الجزائر هو (الادانة) ..

فالحكم يصدر على المجنى عليه قبل أن يمثل أمام هيئة القضــــاة الفرنسية ! والمحاكمة ليست سوى محاكمات صورية لانقاذ المظاهر فقط. ثم أن أعجب مايميز هذه المحـاكم الغربية أن القضاة والمدعين هم .... المجرمون .. وهؤلاء المجرمون هم الذين يقومون باصدار الحكم « المبيت » على « المجنى عليه » .. أى الشخص الذين اقترفوا جرمهم فى حقه .. أى أن الجانى « هو الذى يقـــوم فى تلك الاحوال العجيبة بمحاكمه المجنى عليه .. انه لامر عجيب .

وقضية جميلة بوباشا تعتبر كتجسيم حى لمأساة القضاء الفرنسى فى الجزائر .

لقد وقفت جميلة بوباشا فى ساحة القضاء الفرنسى بالجزائر . وقفت فى قفص الاتهام وجسمها مشخن بالحروق والكدمات والجراح وقفت بعد أن انتهك شرفها واعتدى عليها بأبشــــع وسيلة يتصورها انسان وقفت أمام هيئة القضاء الفرنسية وحلفت اليمين ثم قالت فى صـــــوت ثابت النبرات يشـــع بالايمان والصدق . « لقد عذبت » . وأطالب بأن أفحص طبيا » . أما عن القاضى الذى كان موكلا اليه النظر فى هذه القضيه » .. هذا القاضى لم يكلف نفسه مشقة استجواب الفتاة البريئة الماثلة أمامه .. لم يوجه لها أى سؤال . وكأنه وجد أن الامر لا يستدعى ذلك .. ثم دون الجملة التى قالتها جميلة فى محضر الجلسة . ثم أمر باستدعاء أحــــد الاطباء الاخصائيين . فى عمليات تغطية موقف القضاة الفرنسيين عند نظر قضايا الجزائريين وطلب منه أن يقوم بفحص الفتاة جميلة ...

وقال الطبيب وهو يدعى ليفى ! ليفى ليروى .. وبعد أن أمضى حوالى خمس دقائق فى فحص الفتاة قال :

انى قمت بفحص جميلة ولاحظت أنهـــا تعانى من بعض الاضطرابات التى لقيتها كل امرأة فى فترات معينة من الشـــهر : ناتجه عن تركيبها واستعدادها الجسمى » ..

وبعد بضعة شهور عندما عاودت جميلة وقوفهـا أمام القضاء وطالبت مرة أخرى بفحصها طبيا لاثبات ما لاقته من تعذيب . ثم فحصها بواسطة هيئة مكونة من عدد كبير من الاطباء الباريسيين . واتفقوا جميعا بعـد فحصهم لها على أنها تعرضت فعلا لعملية اعتداء وحشى .

فان الطبيب الفرنسى ليفى لروى الذى يعمل لهيـئة قضاة الجزائر الفرنسية هذا الطبيب الذى سبق أن أصدر قراره المذكور سابقا ، اضطر أن يلقى بتصريح جديد بعد أن خضع لتقرير الهيـئة الطبية الكاملة التى قامت بفحص جميلة .

لقد اضطر هذا الطبيب أن يصرح قائلا فى ١٤ يونيه من ذلك العـام انه فى خلال فحصه لجميلة بوباشا لم يشأ أن يخـدش حياءها ولذا لم يفحصها بدقة » ..

ان التناقض بين اقواله لتناقض فاضح شديد التناقض ان دل على شىء فهو لا يدل على انعدام شرف المهنة انعداما تاما وعلى انهدام الضـمير ..

ولكن هذا الطبيب لا يعتبر سوى جزء ضئيل من الجهاز الجبار المجحف القائم فى الجزائر واهم مميزات هذا الجهاز القضائى الجبار انعدام الضمير والاخلاقيات انعداما تاما . وهذا الطبيب تابع لهذا الجهاز لايقوم الابالعمل الموكل اليه وهو اخفاء معالم الحقيقة وتشويه مظاهرها. تغليف الحق بالباطل والكذب .. اهدار حق المظلوم وادانته زورا وجورا ! انه يقوم بمهنته .. يقوم بها كما يؤديهـا أى قائد أو قاض أو محام أو طبيب فرنسى فى الجزائر .. وما هو وجه الغرابة فى ذلك ؟

هذا ، وقـد أدينت جميلة واعتبرت مذنبه لمـاذا ؟.. ولأى تهمة اقترفتها ؟.. لا لشىء مطلقا وبدون أى دليل مادى يثبت ادانتها . ولكنها أدينت بواسطة الاعترافات التى أخطروها بأن تقولها وهم يسومونها أنواع التعذيب ويعتدون عليها أشنع الاعتداءات وأكثرها وحشية فى سجن البيار وسجن حسين داى .

انها قصة بل مأساة عادية جدا .. مأساة تتـكرر مئات المرات كل يوم فى الجزائر .. ولم نعد نحن الفرنسيين نجد فى هذه الامور شيئا من الغرابة مطلقا .. ولكن ..

ولكن ما هو أمر ما يحدث فى أحد فصول هذه المأساة . ولوقفها عن اتخاذ مجراها الطبيعى المعتاد .

ها هو حادث غير مرتقب قد طرأ على سيناريو المأساة الكلاسيكى !.. انه خطاب بسيط مختصر أرسله شقيق جميلة المعتقل فى معسكر «بوسيه» أرسله الى المحامية جيزيل حاليمى . هذا مع اعتبار أن المحـامين الذين يذهب بهم الاقدام الى درجة أن يسافروا الى فرنسـا للدفاع عن متهمين جزائريين .. هؤلاء المحامون يعتبرون قلة نادرة الوجود .

وحتى لو فعلوا ذلك فانهـــم يقابلون فى طريقهم شتى العراقيل والصعوبات والعوائق الممكنة حتى يحد من دفاعهم وتسلب من يدهم كافة الوسائل الممكنة لانقاذ موكليهم الجزائريين ·· وهذا طبيعى أيضا ·

ولكن جيزيل حاليمى ··

هذه المحامية القديرة والانسانه الباسله استطاعت أن تخرج من هذا النظام الذى وضعته السلطات الفرنسية فى الجزائر من أجل محـــاكمة الجزائريين : لقد تقابلت مع جميلة ·· عملت بكل جهدها على التقرب من مشاعرها وتفكيرها وقلبها ·· الهبت روحها على المضى فى النضال لفضح الجرائم البشعة التى ارتكبت فى حقها ·· جعلتها تكتب عريضة اتهـــام للمدعى العام فى الجزائر ·· وقمت أنا بمساعدة جيزيل على ايقاظ الرأى العام واثارته ضد الجرائم البربرية التى يرتكبها بعض السفاحين فى حق الانسانية جمعاء بصفه عامة ·· وفى حق مجاهدى الجزائر بصفة خاصة ·

وقمت بمساعدة جيزيل بتكوين لجنة خاصه لخـــدمة قضيه جميلة ونصرتها فى محنتها القاسية وقد سبب تكوين هـذه اللجنة ضجه هائلة فى فرنسا كلها وبل فى كافة أنحاء العالم · لدرجة أن السلطات المختصة أصدرت أمرها للمحامية النزيهة «جيزيل حاليمى» ·· بعدم الاقتراب من أرض الجزائر ·· ولكن المحكمة القائمة للتحقيق فى القضية ·· وعلى الرغم من الامر وضح كثيرا فقد خشيت هذه المحكمة أن تنفجر فضيحة قضائية أخرى من وراء ذلك لو انهـا آتمت محاكمة جميلة و ·· ادانتها بدون حضور محاميتها ، فقررت تأجيل القضية ·· للمرة الثانيه ··

ولم يقف هؤلاء المختصون فى أفعالهم عند حد. فقد حاولوا بعد اعلان تأجيل القضيه أن يقوموا بمساومة ما مع جميلة بوباشا · قالوا لها انهم سيعرضونها على طبيب نفسانى معين وسيقرر هذا الطبيب انها غـــير مسئولة عما تفعله وماتقوله ·

ولكن جميلة رفضت ··

وقد تتساءلون بعـــد ذلك الا توجد اذن لجنة للمعونه ؟·· نعم يوجد مثل هذه اللجنة فى الجزائر ·· ولكنها مع الاسف لن تقـــوم بمعونة الجزائرية فى مقاومة جبروت وظـــلم السلطات الفرنسيه فى الجزائر بالعكس · انها تقوم بمعونة القتلة على المقتولين ·

سيمون دى بوفوار

خطاب من شقيق جميله

كنت في الرباط لاقوم بمهمة الدفاع عن بعض الجزائريين الاحرار من أعضاء جيش التحرير الوطني . وهناك تلقيت هـذا الخطاب من شخص يدعى جمال بوباشا .

الخطاب محرر بتاريخ ٢٩ مارس سنة ١٩٦٠ ويبدو أنه قـد أمضى مرحلة سفر طويلة جدا ومر باجراءات متشعبة معقدة قبل أن يصل في نهاية الامر الى يدى لان مرسله جمال بوباشا كان يقضي أيامه فيغياهب سجن أوراني .

واثر تسلمي خطاب شقيق جميلة ابرقت له في الحال أى في تاريخ ١٤ ابريل وحول الخطاب الى . وكان خطابي التلغرافي مدون بما يلى :

« جميلة بوباشا نزيلة السـجن المدنى بالجزائر . كلفت بالدفاع عنها . والرجا اعلام القاضي المختص بذلك تمنياتي الطيبة » .

« المحامية جيزيل حاليمى »

ويلاحظ أن شقيق جميلة في خطابه الى لم يحدد لى نوع التهم الموجهة الى شقيقته جميلة ولكن يلاحظ أيضا أن هنـاك رقابة فرنسية صارمة تزاول على كل ما يتبادله الجزائريون من خطابات ورسائل مـع العالم الخارجي . كما تجرى تعديلات واصلاحات واختصارات واسعة النطاق على معظم هذه الرسـائل ! وطبيعى أن خطـابات الجزائريين الى من يختارونهم من محامين للدفاع عنهم .. لا تستثنى من هذه القاعدة العامة .

وقـد قال جمال بوباشا باختصار تام في خطابه الى : « ولا أشك ياسيادة الاستاذة القديرة أن معونتك لشقيقتى فى محنتها ستأخذ بيدها وتشد من أزرها وخاصة انها تقف الآن وحيـدة منفردة بدون سند أو يد حانية تشد أزرها وتخفف عليها عما تعانيه ، فأنا الآن معتقـل وراء قضبان السجن » .

وأجبته فورا بموافقتي على الدفاع عن شقيقته جميله ..
وفى ٢٦ ابريل من نفس العام تلقيت أول خطاب من جميله .

كتبت جميلة خطابها على احدى أوراق السجن الرسمية والتى تقـدم خصيصا للمسجونين وفى هـذا الخطاب وجهت الى جميلة جزيل شكرها على اهتمامى بأمرها . وأخبرتنى أيضا أن والديها قـد اختارا كذلك محاميا فرنسيا مستوطنا غيرى ولكنهما غير مطمئنين لقدرته على الدفاع عن قضيتها . وفى نهاية خطابها طلبت جميلة منى أن أذهب لزيارتهـا فى السجن .

واهم ملاحظة على خطابها انه مختصر مقتضب مجرد من اللـــون والصفة الشخصية ولاتبدو خلاله سوى الصبغة الرسمية الجافة : قالت فيه : « اشكرك كثيرا على القيام بمهمة الدفاع عنى · ويسعدنى أن أكون موكلتك » ·

والغريب أن الخطاب لم يتضمن حرفا أو كلمة واحـدة فيما يتعلق بوقائع القضية أو أحداثها أو حتى بتاريخها ··

وفى ٣ مايو ارسلت لى جميلة خطابا آخرا يمتاز عن أول خطاب لهـا بما يتضوع خلاله من الحرارة والاهتمام : « لا أعرف كيف أصـــور لك مدى فرحتى وسرورى عندما قرأت خطابك الاخير الى » ها هى جميلة قـد قامت بخطوة واسعة للاقتراب منى .

وفى ٩ مايو وصلنى اخــطار رسمى من المحكمه الدائمة للقــوات الفرنسية المسلحة بالجزائر بأن المدعوة جميلة بوباشا قـــد اختارتنى للدفاع عنها · وجاء هذا الاخطار الرسمى ·

« وستعقد أولى جلسات المحاكمة فى ١٨ مايو سنه ١٩٦٠ فى تمـام الساعة الثامنة والنصف صباحا بالمحـــكمة العسكريه بعنوان ٥ شارع كافنياك » ·

وكان على أن اعود مرة ثانية للجزائر أى كان على مرة أخرى أن أخضع للاوامر الرسمية التى تصدر بين وقت وآخر من السلطات الفرنسيـــة بخصوص سفر بعض المحامين المعينين أو عدم سفرهم ففى كثير من الاحيان كانت السلطات ترفض . بدون ابداء أى سبب للسماح «لبعض» المحامين بولوج أبواب الجزائر ·· ولم يكن هنــاك ما يدعو لتبرير مثل هـــذا الرفض · وفى بعض الاحيان كان يســـمح لهم بالمرور الى أرض الجزائر بشرط الا يمضوا فيها وقتا طويلا · فلا تتعدى مدة بقائهم بهـــا أكثر من يومين أو أربعة أيام على أكثر تقدير ·· وفى هـــذه المرة وباعتبارى واحدة من هؤلاء المحامين « المعينين » .. سمحت لى السلطات بقضاء ما لا يقل عن ٤٨ ساعة فى أرض الجزائر ··

وفى قسم البوليس الخاص عندما وقفت أستفسر عن سبب هذا التعنت والصرامة فى تحديد مدة اقامتى فى الجزائر لم يتفضل الضابط المختص سوى أن يرد على بهذه الجملة المقتضبة :

« من ١٧ الى ١٩ مايو فقط .. كفى ! .. ثم قذف بجواز ســفرى على مكتبه عندما طلبت منه ان يزيد عدد الساعات المحددة لاقامتى هناك وفى نهاية الامر عندما نفد صبره صاح منفعلا »

انها الاوامر .. ليس لدى ما أقـــوله لك .. وليس لدى وقت اضـــيعه !! ..

وبمثل هذه الطـريقة المتناهية الرقة افهمنى ان الوقت المحــــدد لمقابلتى قـد انتهى ..

ما العمل اذن ؟ ما العمل وهذا الوقت المحدد لن يسمح لى الا بحـوالى ثلاث ساعات للاطلاع على نواحى القضية وبحث ملفاتهاوالمناقشة مع موكلتى جميـــــلة ؟ !! . . .

فالاجراءات التى تتم فى مطار الجـــزائر تتطلب وقتا طويلا فهى تتضمن اجراء تأشيرة المرور وتأشيرة مزاولة المهنة فى الارض الجزائرية وتاشيرة المرور من الجزائر الى السجن المدنى الذى تقيم فيه جميـلة . ثم تأشيرات دخول السجن والخروج منه . . و . . الخ .

اى ان اليوم بأ كمله سيضيع فى هذه الاجراءات المتشعبةالواسعة المـــدى المرهقـــة .

ومما يبعث على العجب ايضا ان هناك قانونا عجيبا تتبعه المحاكم هناك فيما يختص باطلاع المحامين على ما يتضمنه اعلانات الجلســـة المتعددة . هذا القانون يبعث على الضحك والتأمل حقا . فهو يقول حرفيا ان الملف المحتوى على اعلانات الجلسة يظل تحت تصرفالمحامين طوال ساعات النهار . . باستثناء اليوم السابق لانعقاد الجلســة !.

. . اى باستثناء اليوم والفرصة الوحيدةالسابقة على انعقادالجلسة والذى استطيع خلالها الاطلاع على تفصيلات هذه القضية .

وكل مافهمته من خلال مالاقيته من تصرفات مجحفة وصرامة فـى تحديد مدة اقامتى فى الجزائران السلطات الفرنسية تبذل كل جهدها لتعوقنى عن دراسة ملفــات القضــية دراسة جادة كاملة عن التمـكن من تحضير مستفيض جيد مناجلهـــا .

ومع ذلك صممت على القيام بهذه المهمة واصررت على السفر الى الجزائر وهناك قد اتمكن من تأجيل نظر القضية حتى استفيد بعـــض الوقت للدراســـة واعداد الدفاع الواجب . ولكن موضوع تاجيل نظـر القضية هذا يعتبر فى عرف المحاكم العسكرية فى الجزائر على درجـــة هائلة منالصعوبة والاستحسالة انه لايقل استحالة عنحكم البراءة أوعن طلب محامى المتهمين الحصول على مزيد من المعلومات !! . .

. . هذه هى الافكار التى كانت تملا راسى وانا جالسة بمقعدى فى الطائرة الملحقة فى طريقها الى الجزائر . انه يوم ١٧ مايو وفى الســـاعة الواحدة من بعــد ظهر ذلك اليوم هبطت الطائرة فى مطار الجزائر .

وفور قدومى الى هناك وجدت فى مقابلتى احد زملائى المحـــامين ولا داعى للذكر اسمه وهو نفس المحامى الذى سبق ان اختارته والـدة جميلة للدفاع عن ابنتها ثم اضطرت الى العدول عن ذلك .

وعلى طول الطريق الموصل من المطار الى المدينة كنت اشاهد اللافتات

الكبيرة التى كتب عليها فى تأنق وعناية مثل هذه العبارات :« لقـــد هزم المتمردون » او الجزائر فرنسية » أو .. أو .. الخ

وعندما بدأت اشكو لزميلى المحامى مدى الصعوبة التى لاقيتها فى طلب مد اقامتى بالجزائر اجابنى فى ابتسامة غامضة .

ـ ماعليك .. ماعليك .. ان الموضوع بسيط جدا .. ان جميـلة متهمة بوضع قنبلة فى أحد المقاهى التى يرتادها الفرنســيون .. وفى هذا الكفاية فســألته :

ـ وهل اعترفت بانهـا مذنبة ؟

ـ لقد اعترفت فعلا ! .. ولن يتطلب منك الامر سوى دفاع لمدة عشر دقائق .. على اكثر تقــدير ..

وبدا لى أن طريقته فى توضيح الامور لى لا يمكن أن توصف الا بأنها صاروخية السرعــة !

« والملفات ؟ .. ماذا تحتــوى بخـلاف الاعترافـ ؟

ـ لا شىء ثلاث محاضر .. هذا كل ماتحتويه .. سترين بنفسك .. نظرة خاطفة وكلمتان وتنتهين من هذه القضية » .

ولم ازد فى حديثى معــه شــيئا ..

وحالما وصلت الى فندق « الايطاى » الذى أقمت فيه خلال هذه الفترة العابرة القيت حقائبى فى احدى اركان الحجرة وخرجت مسرعــة الى المحــكمة ..

وهناك أخذت اتصفح ملف القضية . ان زميلى المحامى كان بدون شـــك على حـــق :

لقد اعترفت جميلة بفعلها اعترافا كاملا واضحا ..

فقد وضعت هذه الفتاة الجزائرية التى تبلغ الثانية والعشرين من عمرها قنبلة فى أحد المقاهى الفرنســـية . ولم تنفجر القنبلة . وتم القبض على الفتاة الجزائرية ولم تحـدث اية خســـائر فى الارواح أو فى شىء آخر . وقد حدث هذا فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٥٩ .

وفى ١١ مارس بقسم البوليس ثم فى ١٥ مارس سنة ١٩٦٠ امام القاضى وقفت جميلة تشرح فى اسهاب وتفصيل كيف ولماذا ولمن اقترفت جريمتهـــــا ..

وبدأت أتصور خلال قراءتى لمحضر قضية موكلتى ان عملية الجريمة

تبدو اسهل بكثير وابسط من مهمة تحقيقها ونظرها التى تمت فى ١٥ مارس سـنة ١٩٦٠ .

ويبدو ان يوم ١٥ مارس هذا كان مليئا مفعما بالاحداث !! .. فقد قام قاضى التحقيقات بتقرير التهمة الموجهة للمذنبة .. وايضا تـم الكشف عليها طبيا .. وفيه اصدر الطبيب ليفى لروى قراره الاعـرج الكاذب .. وفيه قدمت المتهمة شكواها بانها لاقت ابشع انواع التعذيب والتنكيل اثنـــاء عملية التحقيق معهـا ..

وفى ذيل اخر الصفحات العقيمة الاربع التى يتـــكون منها ملف القضية والتى لاتحتوى الا على اعترافات المتهمة كتبت جميلة هـذه الجميلة القصيرة : « اننى اطالب بفحصى طبيا فقد لاقيت كثـيرا من التعـــذيب الجـدى » ..

كم اود ان اراها الان هذه الساذجة الغافلة

ووقفت فى الفناء المخصص للسيدات فى السـجن المدنى وبدات اتخيل شكل موكلتى وهيئتها من خلال الصور المعتمة الداكنة الـتى وجدتها فى ملف القضية فبدت لى من خـلال الصورة : فتاة فى ربيـع العمر .. سمراء البشرة .. مستديرة الوجه لها عيون باردة غـــير معبـرة ..

وبينما كنت غارقة فى التفكير كنت المح جموع الجزائريات النزيلات بهذا السجن وهن يلوحن لى من خلال نوافذ حجراتهن الضيقة ويبعثن لى بقبلاتهن على اطـــراف اصابعهن .

وهنا فوجئت بظهور المشرفة عليهن ، وكان وجهها متجهما كئيبا . وقالت فى خشونة عجيبة سيادة الاستاذة ليس لك الحق فى الجلوس فى الفنـاء هل تسمحين بمغادرته ؟ ثم اضافت منذرة الجماعات الصغيرة من السيدات الجزائريات اللاتى كن ينظرن الى نظرات كلها صـداقة وود . ويهمس بالاقتراب منى لتحيتى :

هيه !! .. حذرا انتن هنـــاك !؟ .

واستدرت قليلا الى اليسار فوجدتها بجانبى . جميلة بوباشـا ! ... كانت تقف فى خجل وتردد خلف السجانة الغليظة الطباع الفظـة الالفاظ فاقتربت منها محيية .

ـ جميلة بوباشا .. ؟ انا جيزيل حاليمى محاميتك .

ها هى امامى اذن .. هاهى صاحبة الكتابة الرزينة الحكيمـــة المتضوعة وطنيـة وبســالة

وشعرها حالك السواد كموجات من بحر اسود .. عيونها حوراء مليئة بالتعبير هيئتها وايماءتها وعباراتها تنم عن خلق وتربية قويمة وقالت لى جميلة .

انني مسرورة جدا بقدومك .

وعندما قدمت لها سيجارة لتدخنها اعتذرت بايماءة خفيفة من رأسها وبدأت أسألها عن أحوالها فى السجن وعن أحوال أسرتها ..

وكانت اجابتها مختصرة مقتضبة تفقد اثر الحيوية والحرارة وبدا لى انها مضطرة الى ذلك .. والا فانها فى حالة التحدث معى فى صراحة كاملة فانها كانت ستلاقى كثيرا من ضروب العقاب القاسية فى السجن الذى كانت تقيم فيه . ففى مثل هذه الاحوال اى عندما تنتاب السجينة نوبة من نوبات الصراحة مع محاميها كانت تحرم من مغادرة حجرتها ..

وتحرم من الطعام لفترة لابد أن تتراوح مع درجة الصراحة التى تكلمت بها مع محاميها !! ..

وفى أثناء حديثنا قالت لى جميلة ان أحد « الاخوان » الاحرار تم اعدامه فى صباح هذا اليوم وأضافت قائلة :

— لم يعدم .. بل قتل «بيد القتلة» . وفى هذه الاحوال نقوم نحن جميعا رجالا ونساء بمصاحبة أخينا الشهيد حتى اخر لحظة من لحظات وجوده .. اننا نمضى الساعات الطوال مرتلين الآيات القرآنية والاناشيد الوطنية .. اننا لانتركه يموت وحيدا .. بل نسير معه خطوة خطوة حتى القبر .. نسير معه بقلوبنا .. بمشاعرنا .. بنبضات صدورنا بخلجات حياتنا ..

وبدات الاحظ لاول مرة خلال حديثنا أن صوت جميلة بدأ يضطرم بل ويشتمل حماسة وحيوية . كان صوتها يتهدج بالانفعال وهى تجيبنى عندما سألتها عن سبب الكدمة السوداء التى تغطى معظم ساقها :

— هل تعرفين .. اننى عضو جبهة التحرير الوطنى واعتبر روحى وحياتى فداء لتحرير وطنى .. اننى اقدم كل قطرة من دمائى وكل دقة من قلبى تضحية وقربانا من اجل قضية بلادى ..

وبدا لى ان الفتاة ذات الملامح الهادئة تحولت وهى تتحدث الى قطة تتنمر بالصراحة والتحفز :

— نعم .. نعم أود أن تعرفى ذلك ..

ووجدت أن اللحظة مناسبة لكى اسألها عن موضوع القنبلة التى

القتها واستفسر منها عن الطـــريقة التى دافعت بها عن نفسها ... فـــالتهـــا :

هل اعترفت ؟

فاجــــابت :

ــ نعم ! نعم اعترفت .. اعترفت بكل شىء ..

ثم ســاد الصــمت بيننا ..

وفجأة رايت عينى جميلة السوداوين تالقتا ببريق خاطف وهاج .. ثم قالت لى بصوت متهدج يفيض تأبرا وانفعالا ..

لقد تالمت .. تالمت وتعذبت .. كثيرا .. كثيراً وبافظع ممـــا تتصورين ... انظرى جانبى كم كنت اتالم ــ لقد شاهدتنى امى حينئذ .. ولم اكن استطيع السير الا محنية القامة .. بسبب ما كنت اعانيه من آلام مبرحة فى جســـمى ..

ثم اضافت فى عبارات دامعة :

ــ اما عن الضرب واللكمات !!. فقد سلطوا على ابى تيارا كهربائيا .. وكانوا يقولون له وهو يتخبط لاهثا بين ايديهم القاتلة :

« لارحمة للعــــرب » .

« انهم قتلة وسفاكو دماء ، انهم وحوش ضارية .. وفى ســـجن حسين داى .. كانوا يبصقون على وجهى بعد ان تنهكهم عمليـــات تعذيبى المتواصلة .. كنت ملقاة تحت اقدامهم القذرة وانا مجـردة تماما من الثياب مشخنة بالجروح والكدمات مضرجة بالدماء .. كانوا يبصقون فى وجهى الخمور التى يجرعونها .. أما الاسلاك الكهربائيـــة فكانوا يلصقونها على جســـمى العارى .. هل تعرفين كيف يكون ذلك .. بواسطة قطع الشمع .. كانوا يلصقون أطراف هذه الاســلاك على اطراف ثديى .. وعلى .. وعلى .. .. أوه !

لا .. لا .. استطيع أن أبوح به .. كانوا يلصقون هذه الاسلاك الكهربائية على كل مكان ــ من جسمى ثم يسلطون عليها التيار الكهربائى .. ثم يقولون وألان ستعرفين طعم المرحلة الثانية وتقدرين مداها ..

وفجأة امتقع لونها وبدا وجهها يحاكى وجوه الموتى فى جمـــوده وشحوبه المخيف وهى تلوذ بالصمت وخلال حديثها لم احاول ان انطق بكلمة واحدة وبالرغم من انها كانت تشعر بضرورة الافاضة عن كـــل شىء فقد صمتت وامتنعت تماما عن الكلام .. ولم اجرؤ انا عـــلى

انطق بكلمة واحدة .. وماذا كان عساى أن اقـــول أمام هـــــذه البشـــاعة المجســـمة ؟!

وأخذت أكتب بعض المذكرات وبدأت هى تميل على أوراقى فى نظرة ساهمة . ولم أستطع أن أملك نفسى وما يختلج فيها من مشاعر العطف والحنان على هذه البائسة .. فملت نحوها وقبلتها على احدى وجنتيها . ولم تتحرك جميلة .. ووقع منى قلم الحبر .. فانحنت وأحضرته لى وهى تتمتم بسرعة :

ــ أوه ... معذرة .

فأمسكت بيدها مع القلم بين يدى وقلت لها .

ــ جميلة .. صرحى لى بكل شىء .. كل شىء .. تستطعين أن تفعلى ذلك .. اننى لم أحضر هنا الا من أجلك .. أنت .

وبدا عليها أنها تمالكت نفسها قليلاً وأجابتنى .

لقد أرسلت للحكومة خطابا أطلب فيه أن يتم فحصى طبيا .. ولكنك تفهمين .. لماذا طلبت أن تكون المحامية امرأة .. كنت سأعجز تماماعن سرد الاشياء على مسامع رجل .. هل تفهمين ما أعنى ؟.. لقد قلت فى خطابى لمندوب الحكومة « أود أن يجرى على فحص طبى » ويبدو أن جميلة بدأت تتبين فجأة عواقب اعترافاتها المسهبة التى دونت فى محضر القضية فسألتنى :

ــ هل تعتقدين اننى أخطأت ؟.. أكان يجب على أن أستشيرك قبــل أن أعترف .. ولكن لم يكن من المستطاع أن أكتب لك بكل ذلك ..

ومضيت أكتب .. وأكتب طوال ساعتين كاملتين وأنا أستمع لاجابات جميلة على أسئلتى .

وفى خلال ذلك طلبت منها ان تفك أزرار قميصها الابيض الذى كانت ترتديه وعندما فعلت وجدت صدرها وثدييها مغطيان بعــدد لا يحصى من البقع الصفراء المستديرة .. وكأنها حبات عنب داكنة ..

كان السفاكون يضغطون عليها بصورة وحشية أعقاب سجائرهم المشتعلة !

ولاحظت أن « القتلة كانوا يوجهون اهتماما أكثر الى جزء معين » من أجزاء جسمها الحساسة .. فعلى هذا الجزء لاحظت أو وصمات الحروق كانت تبدو شديدة العمق كبيرة الاتساع .. فلا بد انهم كانوا يضغطون باصرار وقوة بسجائرهم المشتعلة فى هذا المكان بالذات !

وانكببت على الاوراق أدون بها ما أراه وما أسمعه . كنت أشعر بالثـــورة والغضب فى دمائى .. وأصابعى .. وفى الكلمات المضطربة الثائرة التى أخطها على الورق .. كنت أخاف من اقتراف مجرد هفـــوة صغيرة فى تعيين عـــدد الحروق والجروح التى تغطى بهـــا جسم الفتاة المسكينة الجالسة بجوارى .. وكذلك كنت أخشى الخطأ فى ذكر اســـم السجن الذى لاقت به هذا العـــذاب .. واسم المشرف عليه .. وفترة

الاعتقال في السجن . كنت أخشى من الوقوع في أى خطأ بخصوص مثل هذه النقط . فالوقائع هي فرصتنا الوحيدة في مثل هذه القضية ..

وشيئا فشيئا .. وخطوة خطوة بدأت أتبين معالم الطريق أمامى .. في وضوح تام تكشفت لى الحقيقة البشعة المذهلة التى تنطوى عليها هذه القضية العجيبه .

لا ليس الامر عاديا . ليس عاديا مثلما قال لى زميلى عندما استقبلنى في المطار ..

وهنا شعرت بدماء الثورة والتقزز وتصطخب فى راسى بشاعة الجريمة التى بدت لى معالمها عارمه واضحة ..

انها جريمة .. بشعة .. مروعه ؟!

انها كغيرها من الجرائم السابقه جريمة على درجة فائقة من البشاعة . جريمة لا تغتفر .. وفى هذه اللحظه صممت على أن أحيط قضاة فرنسا بهذه الجريمة المنكرة .. بل صممت على أن أذيعها فى فرنسا كلها .. بل العالم كله .. وهـــذا لازم وضرورى جدا لصالـــح موكلتى البريئة الباسلة .. لصالح الجزائريين اجمعين .. لصالحنا نحن الفرنسيين كلنا وبدون استثناء بما فينا من قتله سفاحين ، وجبناء يذلهم الخوف .

بل وجدت أن أسرد وقائع هذه الجريمه قـــد ينقذ البقية الباقية .. من الشرف الفرنسى .

وتماسكت على نفسى واستجمعت قواى لانطق بالكلمات المحشرجة فى حلقى .

سنجرد المجرمين . . سنقدم ضدهم شكوى . . سنضطرهم لبدء تحقيق جديد .. ولكن علينا أن نقذف باتهامنا في وجوههم .

وهنا أمسكت جميله بيدى بين راحتيها ووضعتها على ضلوعها وهى تقول :

ــ أنظرى .. تحسسى .. انها لا تظهر من خلال القميص الفضفاض الذى أرتديه الآن .. ولكننى لن أستطيـــع فى يوم من الايام أن أرتدى « بلوزة » صوفية أو بلوفر اضيقا « حتى لا يظهر للناس ما أصبت به من تشويه فى جسمى » ..

وتحسست بأصابعى مكان ضلوعها .. واصطدمت يدى بكتلة كبيرة من اللحم المتضخم فى الجهة اليسرى من صدر الفتاة الجزائرية .. تحت الثدى الايسر تماما . . حيث كانت تتلقى الضربات والركلات القاتلة من ضربات الجند الثقيلة . . فوق قلبها . . وهى ملقاة عارية فاقدة الوعى تحت أقدامهم ..

« وقالت جميلة :

« انه قائد فرنسى ... الذى فعل بى ذلك . لقد سألنى عما اذا كنت آسفة على مساعدتى للاخوان الاحرار وتعاونى معهم . . فنظرت اليه فى

حدقة عينيه الغائرتين وقلت له اننى ٠٠٠ لست آسفة على أى شيء ٠٠٠ وهنا أمسكنى من ضفيرتى ٠٠ هكذا (وأمسكت جميلة بضفيرتها الطويلة وأخذت تثنى طياتها على قبضتها) ثم أخذ يوجه الى اللكمات فى صدرى٠٠ ويقذف بى بعنف وقوة على الحائط ٠٠ وشعرت بضلوعى تتحطم تحت قبضته الحديدية ٠٠ ورقبتى تلتوى ٠٠ والارض تميد بى ٠٠ ثم غبت عن وعيى ٠٠٠ »

وبدأت حركاتها تقل ٠ وأخذ صوتها يصطبغ بالصبغة الباردة الساكنة التى لاحظتها عليها عند بدء مقابلتى لها ٠

ـ وأفقت بعد فترة ٠٠٠ فوجدت نفسى ملقاة على الارض على ظهرى وهو يضربنى بكعب حذائه الثقيل ضربات مريعة فوق صدرى٠٠هنا ناحية القلب ٠٠ ناحية هذا التشويه الذى أصابنى بسبب هذه الركلات المبرحة الالم ٠٠٠

وسألتها :

ـ متى تم القبض عليك يا جميلة ؟

ـ فى مساء يوم ١٠ فبراير ٠٠

وأخذت أفكر متعجبة : هل أخطأت جميلة فى ذكر تاريخ اليوم الذى تم فيه القبض عليها ؟! ٠٠٠ فها أنا ذا أطالع فى المحضر الموجود أمامى أن تاريخ مثولها أمام القضاء كان ١٥ مارس فقلت لها :

ـ لعلك تعنين ١٠ مارس ؟

ولكنها أجابت فى اصرار وثبات :

ـ لا ٠ بل ١٠ فبراير فى المساء ٠٠ وقد أمضوا فترة طويلة فى تعذيبى قبل تقديمى الى قضاتهم ٠٠ وكم قاسيت وتعذبت خلال هذه الفترة ٠٠٠

وانتهيت من تدوين كل ما ذكرته لى جميلة وكل ما شاهدته على جسمها من آثار التعذيب ٠ ووقفت أمامها عاجزة عن النطق ٠٠ عجزت تماما عن أن أعبر لها عن مدى الاشمئزاز والتقزز والخجل التى تعتمل فى نفسى بسبب ما أقترف فى حقها من اثم ٠

وكل ما استطعت أن أقوله لها بعد فترة طويلة من الصمت وهى تحكم رداءها حول رقبتها :

ـ جميلة ٠٠ عندى فى حقيبتى قطعة « حلوى » صغيرة ٠٠٠ هل تأخذينها ؟ ٠٠٠ أرجوك ٠

ورفضت جميلة لانها كانت صائمة ويبدو أنجميع نزلاء هذا السجن السياسيين يصومون اليوم الذى يتم فيه اعدام أحد اخوانهم ٠

واقتربت من جميلة ٠٠ وحضنتها بين ذراعى وأنا أقبلها علىجبينها قائلة :

ـ الى اللقاء يا جميلة .. سأحضر مبكرة لكى تضعى امضاءك على الشكوى التى سأعدها هذا المساء .

وأومأت لى برأسها فى صمت وابتعدت عنى ... وعندما أطبقت يد السجانة على يدها واصطحبتها وراءها ايذانا بانتهاء مقابلتنا... التفتت جميله نحوى وهى تصيح من بعيد :

ـ هذا رائع الآن ... الى الغد اذن ...

وفى حجرتى بالفندق بدأت أدون أغرب وأبشع مذكرة عن التعذيب والارهاب الذى أوقع بفتاة بريئة غضة لم تجن ذنبا سوى انها تحب وطنها .... الجزائر الحرة .

التعـــذيب

في مساء يوم ١١ فبراير عام ١٩٦٠ اقتحمت قوات الامن منزل عائلة بوباشا .

وقد تم هذا الهجوم على منزل عائلة بوباشا بعد أن قامت بسلسلة من الاستفسارات والتحرى عن مكان المجـــاهدين الوطنيين « مراد » و « جمال » اللذين فرا من قوات الامن داخل أحراش الجزائر واحتميا بداخلها . وكان الجنود الفرنسيون عند هجومهم على منزل أسرة بوباشا يعتقدون أن مراد وجمال يختفيان لديهما .

وبعد أن اقتحموا وحطموا باب المنزل أخذوا يوقظون أفراد الاسرة بركلهم الباب بأحذيتهم الغليظة وضربهم بطرف بنادقهم .

وعبد العزيز بوباشا هو رب هذه الاسرة . ويبلغ الثانية والسبعين من عمره ولكنه يتمتع بقوام فارع وجسم قوى .

وزوجته هي زبيدة عمرشي التى تبلغ من العمر ٥٨ عاما . والابنتان جميلة التى لم تتعد الثانيه والعشرين من ربيع عمرها ونفيسة التى تبلغ ٢١ عاما . وكذلك عبد الحميد أحمد الذى يبلغ عمره واحدا وثلاثين عاما وهو زوج نفيسة ويعيش مع أسرة زوجته ثم طفلين صغيرين ابنى نفيسة وعبد الحميد .

وهجم الجنود بضراوة ووحشية على أفراد هذه الاسرة . وأخـــذوا يلقون بهم من مخادعهم بقسوة وفظاظة بالغة ...

وأخذ الجنود ينهالون بأقبح الشتائم وأحط العبارات على جميـــلة ويوسعونها لطما على وجهها ولكما في صدرها ووجهها!..وكذلك انهالوا بالضرب الموجع على أبيها الشيخ العجوز وراحوا يدوسون عليه بأقدامهم أمام أفراد أسرته وكانت الأم تنتحب في ألم وحرارة موجعة ..والاطفال يصرخون هلعا من هول المنظر الملىء بالتنكيل الرهيب والقسوة الهمجية التى تقع أمام أعينهم .

ولوحظ أن الضابط « د » .. هو الذى أخذ على عاتقه مهمة «الاهتمام بمصير » جميلة ... فهو الذى بدأ أثر اقتحام منزل أسرتها بالانهيـــال عليها وعلى أبيها ضربا وركلا قاتلا ..

وبينما كان الضابط « د » وبعض الجنود منهمكين فى اداء هذا العمل الوحشى نحوأفراد الاسرة كانت طائفة أخرى من الجنود تبحث وتنقب فى كافة أرجاء المنزل . وأسفر هذا البحث عن العثور على خطابين أحدهما موجه من المجاهد الجزائرى السيد باكتى والآخر موجه من المجـــاهد جمال كما عثر الجنود على عدة أفلام فوتوغرافية .

ووجد الجنود فى هذين الخطابين وتلك الافلام غنيمة كبرى يستعينون بها فى ادانة افراد الاسرة عند تقديمهم الى القضاء. ولكنهم وجدوا ايضا خلال بحثهم المستفيض غنيمه أخرى أكثر فائدة لهم .. وجـدوا مبلغ ٣٤٠٠٠ فرنك وساعه ذهبية ! ولم يتوانوا عن وضع أيديهم على هـذا المال الذى كانت الاسرة الجزائرية المتوسطة تعتمد عليه اعتمادا كبيرا فى عيشها ...

وبعد أن تأكد الجنود من أنهم حصـلوا على كل ثمين ونفيس من ممتلكات الاسرة وان أفرادها يتلوون شبه صرعى تحت أقدامهم من بشاعة الضرب الذى أنزل بهم ، بعد ذلك أخذوا ينهالون على جدران البيت وأثاثه ويعملون فيه تحطيما وتكسيرا ثم جاء دور ما يحتويه المنزل من غذاء .. فانقض عليه الجنود يلتهمونه فى بدائية منكرة حتى أتوا عليه تماما .. وعندما عثروا على ما تختزنه الاسرة من كميات كبيرة من الغلال والمـواد الغذائية أخذوا يلقونها من النافذة ويدوسونها بأقدامهم حتى لا تغـدو صالحة مطلقا لأى استعمال ..

... فبمثل هذه الطريقة تتم عمليات التفتيش على بيوت الجزائريين الاحرار .. المجاهدين .

ومكث الجنود فى منزل بوباشا حتى الساعة التاسـعه من صباح اليوم التالى بالرغم من أنهم كانوا قد بعثوا بجميلة وأبيها وزوج أختهـا الى السجن فى سيارات جيب سريعة منذ حوالى الحادية عشرة مساء .

وبدأ أول يوم لجميلة بين جدران سجن « البيار » .

وحينما وصلت جميلة الى هذا السجن بدأ الضـابط « و » يتولاها برعايته الخاصة ... أخذ ينهال عليها بفيض من الاسئلة المتلاحقة لكى يتعرف منها على مكان المجاهدين الجزائريين مراد وجمال .

وقالت جميلة انها لا تعرف عن مكانهما أى شىء مطلقا ... وبالتالى أخذت اللكمات واللطمات الحادة تنهال عليها دون هوادة أو رحمة ، بل لم يتوان جلادها من الامساك برأسها بين يديه ودقه فى الحائط بشدة وعنف ... ليستعيد بعد ذلك سيل اللكمات والضربات الموجعـة على وجهها ..

وبعد هذه المرحلة من برنامج التعذيب أخذت جميلة الى مكان عبـد الحميد زوج أختها فى الطابق العلوى من مبنى البوليس حيث كان يسلط على جسده تيارات كهربائيه طوال ثلاث ساعات متوالية .

واعترفت جميلة انها كانت تشاهد بعض الاخوان المجاهدين وهم يزورون منزل أسرتها ولكنها لا تعرف مطلقا المكان الذى تعلم فيـه هؤلاء المجاهدون الجزائريون وأصيب الضابط خلال هذه الفترة بتعب وارهاق شديدين بسبب المجهود البالغ الذى بذله فى تعذيب وضرب جميلة ..

وفى نهاية هذه الاعمال الوحشية ارتمت جميـلة فاقدة الوعى من قسوة ما لقيته من تعذيب وآلام فألقى بها الجنود فى احدى الحجرات

الصغيرة المظلمة والتي تخلو تماما من أى منفذ للهواء ··· وألقوا بها على أرض الغرفة العاريه بكل رطوبتها وظلمتها ·

وبعد مضى ساعتين ···

فتح باب الحجرة «··· لقد عاد الجنود لاحضار جميلة الى الضابط» بعد أن زالت عنه آثار التعب شعر باستعداد لمعاودة عملية استجواب الفتاة المجاهدة ···

ومرة أخرى وهى فى حالة يرثى لها من الانهيار والضعف والاعياء أخذت جميلة تتلقى سيلا آخر جارفا من اللكمات والضربات واللطمات على جزء من جسمها ودقت رأسها فى الحائط أكثر من مرة حتى كادت أن تتحطم ··· وسالت منها الدماء ·· وطرحت على الارض فاقدة وعيها تماما · فنقلت ثانية الى زنزانتها ·

وفى اليوم التالى عاود الضابط مع الفتاة المسكينه نفس العملية أو زاد عليها كثيرا من التفنن والابتكار فى توجيه الضربات واللطمات على وجهها وجسمها ·· ومع ذلك ··

كانت جميله تجاهر فى كل مرة من هذه العمليات الوحشية بأنها تنتمى الى جبهة التحرير الوطنية الجزائرية وانها شديدة الفخر بذلك · بل أنها صرحت فى زهو وفخر أنها كانت تقدم خدمات كثيرة للمجاهدين جمال ومراد · وزودتهم أكثر من مرة بالادوية وكثير من الاحتياجات المادية الاخرى ·

وفى اليوم الثالث ···

أحضرت جميلة فى صباح هذا اليوم من زنزانتها الى حجرة التعذيب مرة أخرى وطلب منها أن تقدم أسفها على ما كانت تقوم به من أعمال لصالح وطنها ·· فرفضت فى أباء وشمم ·· وانهالت بذلك عيها ضربات ولكمات أكثر وأفظع ايلاما من ذى قبل ·· وأخذ صوت ارتطام رأسها بالحائط يدوى فى أرجاء الحجرة الرهيبة ·· وغطت الدماء الحارة المنسابة من جبينها جميع أجزاء وجهها ··· وكال لها أحدهم ضربة رهيبة فى صدرها ·· فترنحت الفتاة الضعيفة وانهارت مرتطمه بأرض الحجرة ·· ولكن نفس الجندى الذى وجه اليها هذه الضربه القاضية اندفع نحوها يدوس على صدرها بنعلى حذائه ويضغط فوقها بكل قواه!· وعندما أوشكت أن تلفظ أنفاسها توقف الجلادون عن ركلها وضربها · وقد أثبت الفحص الطبى أن جميلة أصيبت من جراء ذلك بعدة كسور متعددة فى الضلوع وأنها ستظل تعانى من آلامها طول حياتها ··

وعندما فقدت جميلة وعيها تماما ووجد الجلادون أنها لن تشعر بضرباتهم وركلاتهم نقلوها الى زنزانتها ·

واتبعت نفس الوسائل البربريه مع نفيسة شقيقة جميلة فقد أتوا بها هى أيضا فى صبيحة ١٣ فبراير الى سجن البيار الذى يضم أختها جميلة ·

ويبدو ان الجلادين كانوا يتمتعون بقدر لا بأس به من الانسانيه . فقبل أن يسوموا الفتاتين الباسلتين أشنع أنواع التعذيب ‥ سمحوا لهما بأن يتقابلا معا فى حجرة منفردة .

ولكن نفيسة كانت قد اكتشفت تحت سريرها جهاز التسجيل قبل حضور جميلة بعدة ساعات وارتمت كل منهما فى أحضان الاخرى واستسلمتا للبكاء ولم تنطقا بكلمة واحدة طول لقائهما ‥

وجاء دور مواجهة جميلة بوالدها ‥ أحضروها اليه فى نفس الحجرة التى يتم فيها التعذيب ! ..

أدخلوها عليه أثناء اجراء عملياتهم البشعه الرهيبة‥ فوجدت جميلة أباها مقيدا بواسطة حبال غليظة الى لوح كبير من الخشب مثبت على الحائط وهو عار تماما من الثياب ‥ سمعتهم يسألونه فى تهكم وهو فى وضعه هذا اذا كانت أسنانه صناعيه وعندما أومأ بالايجاب قالوا له فى تهكم انهم يودون اذن تخليصه منها ‥ وبعد ذلك بدأت عملية التعذيب تتخذ مجراها الطبيعى المعتاد وذلك بتسليط أنبوبة حديدية للمياه المثلجة على كافة أجزاء جسمه ‥ ثم دفع هذه الانبوبه بما ينساب منها من مياه داخل فمه ‥ وأذنيه ‥ ثم يقوم أحدهم بالقفز فوق بطنه المنتفخة بالمياه !‥ فيندفع الماء خارجا من كل جزء من أجزاء جسمه ...

وهنا يقول لهم عبد العزيز بوباشا فى حشرجه بائسه :

ـ الرحمة !‥ شيئا من الرحمة ‥

فيجيبه أحدهم فى حنق وغضب :

ـ لا رحمة للعرب ...

والآن جاء دور « الماشة » فبهذا الاسم الدارج يسمى الجزائريون هذه الآلة الجهنمية التى يستعين بها السفاحون لتعذيب ضحاياهم . انها مصممة على هيئة حرف (ف) ويتصل كل من طرفيها العلويين بأسلاك كهربائية يسرى بها التيار الكهربائى... ثم يمرر الطرف السفلى على كافة أجزاء جسم الضحية بحيث تكون اللمسات متقطعة سريعة !‥ وتحت لمسات هذه الآلة الشيطانيه الرهيبة تظل الضحية تنتفض انتفاضات متلاحقة من أثر التيار السارى فى جسمها !... ولا يختلف منظر الضحية وقتئذ عن منظر السمكة وهى تطهى فى مقلاة الزيت المغلى ... وفوقها الماشة تتحرك .

فتنطلق الصرخات المؤلمة من فم والد جميلة لاسترحام قلب جلاديه القساة ‥ فيردون عليه بالضرب على رأسه بواسطة عصا غليظة .. لاسكاته تماما ‥ وتسكت الضحية فعلا ‥ بعد أن غابت عن رشدها وأوشكت أن تلفظ البقية الباقية من أنفاسها اللاهثة .

ويلقى بعبد العزيز فى أحد الاركان لمدة قصيرة ‥ ثم يعيدون ايقاظه وتفويقه عنوة بواسطة أحذيتهم الثقيلة التى يركلون بها وجهه

ورأسه . ثم ينقل من غرفة التعذيب الى زنزانته كما تنقل أى كتله من اللحم الآدمى الممزق المحطم ..

... وأجبروا جميلة على حضور هذه العمليه البشعة التى أجريت لأبيها .. وكانت هذه أبشع وأشنع عمليه تعذيب مرت جميله بها !..

وفى الزنزانة ألقى عبد العزيز فى أحد الاركان المظلمة تحت نافذة حقيرة فى قاعدتها كلب صغير . وثبت عبد العزيز فى وضع تحت النافذة بحيث يكون وجهه تجاهها وهو راقد على ظهره و ... بحيث لا يجـــد الكلب الصغير الموجود فوق النافذة مكانا آخر لقضاء حاجته الطبيعيـــة (التبول والتبرز) .. سوى وجه عبد العزيز !

وجاء اليوم الثالث !..

وفى هذا اليوم اقتيد عبد العزيز الى حجرة كبيرة أخرى لعمليـــات التعذيب حيث ووجه بابنته جميلة وبزوج ابنته الاخرى عبد الحميد وأمام ... ثم أمر عبد الحميد أحمد بخلع كل ملابسه !..

وأمام الرجلين المكبلين بالحديد أخذ الجنود يوسعون الفتاة ضربا وركلا واعتــــداء . .

واقتيد عبد العزيز الى زنزانته التى تبعد عن غرفة التعذيب بحوالى ثلاثة أو أربعة أمتار . ومن مكانه كان يســـمع صرخات الالم التى كان يطلقها زوج ابنته دون توقف .

وبعد وقت قصير حضر أحد الاطباء الى غرفه عبد العزيز . وحقنـــه ببعض العقاقير . وسأله الطبيب عن مبعث هذه الصرخات المتعاليه حتى زنزانته فأخبره عبد العزيز بأن الجنود يقومون بتعذيب زوج ابنته . ولم يسع الطبيب الشاب سوى أن يحنى رأسه ويخرج دون أن ينبس بكلمة من غرفة السجين العجوز (١) .

وفى مساء هذا اليوم أحضر السجان بعض الغذاء للســجين العجوز عبد العزيز بوباشا ولكنه رفض أن يتناوله معلنـــا اضرابه احتـجاجا على عمليات التعذيب الرهيبه ...

وفى اليوم التالى عندما عاود الضابط «و» استجواب جميلة بخصوص أبيها قالت انه كان يعيش منذ فترة بعيدة ببلدة تاجرين بعيدا عن « دير أبراهيم » حيث يقيم جميع أفراد العائلة ، ولم يكن يعلم مطلقا بحضور جمال ومراد الى المنزل .

وهنا شيع الجنود السجين العجوز الى زنزانته بقدر متوافر من اللكمات والركلات ومنذ هذه اللحظة توقفوا عن ضربه واستجوابه .

ولكن عبد العزيز بوباشا أصر بالرغم من ذلك على اضرابه عن تناول الطعام .

وفى يومى ٢٢ و ٢٣ فبراير حضر طبيب آخر للكشف عليه ولحقنه

---

(١) عندما اعيد التحقيق فى نوفمبر عام ١٩٦١ وســأل الطبيب الشاب عن صحة هذه الاقوال اجاب بالايجاب .

بعض المواد الغذائية ولكن المناضل العجوز استطاع أن ينتزع الابرة من يد الطبيب ويمنعه من حقنه قائلا :

ـ لا لزوم لذلك مطلقا .. لا فائدة من محاولة ترميمي بعد الانتهاء من تحطيم جسمي .. وفي ٢٤ فبراير زادت حالة عبد العزيز بوباشا خطورة عما كانت عليه من قبل فقد أصر اصرارا قاطعا على عدم تناول أي طعام .

وهنا قرر سفاحوه أن ينقلوه الى « مستشفى مايو » حيث يتم علاجه . وحيث مكث حتى ٨ مارس .

وفي مستشفى مايو قام طبيبان شابان بالاشراف على علاجه بعد أن وعداه بكتابة تقرير كامل عن كل ما لاقاه من صنوف التعذيب بشرط أن يتناول مايقدمانه له من غذاء ودواء وقبل عبد العزيز بوباشا عرضهم بعد اضراب كامل عن الغذاء وكان ذلك في ٢٦ فبراير عام ١٩٦٢ بعد اضراب عن الطعام طوله خمسة عشر يوما !..

وأخذ الطبيبان الشابان يدونان مشاهداتهما وملاحظاتهما عما يعانيه مريضهم وقد لوحظ أن عملية التعذيب بواسطة المياه قد بلغت آخر مراحل خطورتها وأثرت تأثيرا سيئا على سمعه وكانت أجزاء جسمه مغطاة بالكدمات والقروح والجروح المتعفنة . ولا يستطيع تحمل أي لمسة بسيطة على رأسه لكثرة ما بها من رضوض وجروح .

وفي ٨ مارس نقل عبد العزيز ثانية الى سجن البيار ومكث هناك حوالى أربعة أيام دون أن يلقى عليه أي سؤال أو استجواب .

أما عن عبد الحميد فقد مرض أيضا نتيجة للوسائل التعذيبية البشعة التي مر بها عبد العزيز بوباشا بل أن الجلادين ميزوه عنه بمزيد من التفنن والقسوة فيما أنزلوه به من عذاب مقيم .

كان أحدهم يقوم بتمرير الماشة الكهربائية على جسمه العاري المبلل خصيصا بالمياه وآخر يقوم بتحريك الدينامو التي تنبت أطراف سلوكها حول أذنيه !..

وفي معظم الاحيان كانت شرزمه المحققين لا يقل عددها عن سبعة أفراد كما انهم كانوا يبذلون نشاطا وهمة مرموقة في تجهيز الضحية الموجودة بين براثنهم ... فها هو أحدهم يقوم بدفع أنبوبه المياه داخل حلق عبد الحميد والثاني يسارع بسكب محتويات علبة كبيرة من مسحوق الاومو داخل فمه والثالث يتبعه بسكب محتويات علبة كبيرة أخرى من الملح وآخر يقوم بالقفز في قوة فوق بطن السجين المنتفخة انتفاخا شديدا لكي يندفع الماء في قوة خارجا من فمه وأذنيه وغيره يقوم بين حين وآخر بلطم عبد الحميد بين لحظة وأخرى لطمات رهيبه على صدغيه .

وخلال ثمانية أيام متتالية كان عبد الحميد يقضي في حالة التعذيب هذه حوالى ٥ أو ٦ ساعات متواصلة .

أما جميلة فقد ووجهت مرة ثانية برجل وامرأة لا تعرفهما من قبل

فقد أحضروا هذين الشخصين الى زنزانتها مع الضـــابط «و» وبدأ يتصفحان وجهها وجسمها فى امعان شديد ثم غادرا الحجرة بعـــد أن اشارا للضابط قائلين باختصار لا .

الرجل يدعى سلطانى عمار والمرأة اسمها مازيجه أنجيلا هو يعمـل جرسونا بالمقهى الفرنسى الذى ألقيت فيه القنبله وهى تعمل عامله كيس فى نفس المقهى ولم يتعرفا على جميلة بالرغم من أنهما قد أدليـــا بنفس أوصافها فى شهادتهما الاولى !.

فقد سبق فى يوم ٢٧ سبتمبرسنة١٩٥٩أى فى اليوم الذى وضعت فيه القنبة فى المقهى الفرنسى أن قال هذان الشاهدان انهما لاحظا فتـــاة شابة تفر هاربة من المقهى بعد آن وضعت القنبلة.ولكنهما عندما شاهدا جميلة فى زنزانتها فى يوم ٢٦ فبراير قالافى ثبات « ليست هى جميله »

فى يوم ١٧ فبراير حضر ضابطان من البوليس الفرنسى الى زنزانة جميلة . وأستطيع أن أذكر هنا الحرف الاول من اسميهما « ت » و «ج» واصطحبا جميلة الى سجن « حسين دادى » .

وفى مساء نفس هذا اليوم اقتيدت الى بهو كبير فى الدور السفلى من مبنى السجن . ولاحظت جميلة وسط البهو وجود كرسى كبير ومائل بدرجة كبيرة الى الخلف كالمقاعد التى يستعين بها أطباء الاسنان عنـــد الكشف على مرضاهم . ولكن هذا المقعد الكبير كان يمتـــاز بمسنديه العريضين ووجود أحزمة من الجلد الغليظ المثبت بكافة أجزائه !..

وكان المفتشان « » و «ج» حاضرين ساعتئذ ومعهما ضابط آخر أبيض البشرة منتفخ الاوداج .

وأعيد استجوابها ... وأعادت جميله قولها بأنها لا تعرف مطلقـا المكان الذى يقيم فيه المجاهد جمال . وهنا طلب منها واحد من الضباط الآخرين الحاضرين أن تخلع كل ملابسها ... ولكنها رفضت .

فانقضا عليها انقضاض الوحوش وأخذا يمزقان ما يغطى جسمها من ملابس حتى غدت عارية تماما من أى غطاء .

وأخذا يجرانها بقوة ضارية نحو المقعد الكبير الموجود فى وســـط الحجرة واستطاعا بالرغم من مقاومتها الباسلة أن يقيداها فى هـــذا المقعد . ثم كمما فمها بقطعة من القماش .

وعلى مائدة قريبة كانت تبدو الآلة المعدة للاستعمال ..

وقد وصفتها جميلة بعد ذلك بقولها : انها آلة صغيرة طولها حوالى عشرين سنتيمترا وعرضها ٢٠ سم ومزودة بعجله صغيرة تتشعب منها أسلاك كهربائية عديدة ..

وبعد أن قيدا الفتاة وهى عارية تماما بالمقعد الكبير أخذ الجلادون يتناولون بشأنها ملاحظات دنيئة نابيةويرشقونها بنظرات فاضحةمبتذلة وهم يتجرعون زجاجات من البيرة ويبصقون ببعضها على وجهها وجسمها

وغدا جسمها ووجهها كله مبتلا بالبيرة ...

وهنا أخذوا يبذلون كل جهدهم لكى يلفوا الاسلاك الكهربائية الطويلة حول كل واحد من ثدييها . ولكن لم يتمكنوا فقد كانت الاسلاك تنزلق على جسد الفتاة المبتل .

ولم يجدوا وسيله سوى أن يثبتوا الاسلاك بلصقها بالمشمع .

وبدأ أحدهم يدير الآله فى بطء تارة وبسرعه مذهلة تارة أخرى .. وبالتالى كانت الفتاة البائسة تنتفض تارة انتفاضات متفاوتة وتارةأخرى انتفاضات سريعة محمومة !.. أى حسب سرعة التيار الكهربائى الذى كان يسرى فى جسمها العارى ..

وفى كل مرة كان السفاحون يودون الحصول من جميله على جواب لاسئلتهم كانوا يحلون قطعة القماش المربوط على فمها ثم يعيدونها ثانية

وخلف كتفى الفتاة المجاهدة ، وقف أحدهم يدخن سيجارته فىهدوء وتلذذعجيبوبين لحظة وأخرى كان هذا المدخن يضغط بالطرفالمشتعل من سيجارته على صدرها وعلى كتفيها .. وحالما انتهت السيجارة تماما أطفأها بضغطة طويلة عميقة على مؤخرة جسم السجينة الشابة !

وقد رأيت بعينى كل آثار الحروق البشعة التىشوهت بشرة الفتاة الجزائريه الباسلة عندما حضرت لمقابلتها لاول مرة فى سجن الجزائر بتاريخ ٧ مايو من نفس ذلك العام .

ترى كم استمر هذا العذاب المقيم «!

قالت جميله لى : لقد قيل لى ان لا نهايه لما عانتهحينئذ من آلاممريعة كان الجلادون يبدون صبرا ومثابرة عجيبة فى تعذيبى بهذه الكيفية المروعة .

وكان غرضهم من استمرار ذلك أن أبوح لهم بالمكان الذى يختبىء فيه (اخوانى) ..

وفى اليوم التالى حضر الجنود واقتادوها من زنزانتها حيث كررت عليها العملية الكهربائية مرة أخرى . ولكنكان هناك فرق بين فىالطريقة الفنية التى أنزل فيها العذاب بجميلة فى هذه المرة : فاستبدل بالاسلاك الكهربائية المثبتة على أجزاء الجسم استبدل بها « الماشة » الكهربائية التى كانوا يمررونها دون توقف على وجه الفتاة الجزائريه ؟!..

وبعد حوالى ثلاثة أيام من حضور جميلة فى سجن حسين داى ومعاناتها أمثال هذه الآلام المبرحة فوجئت بالجلادين يوقظونها فى منتصف الليل ويقولون لها :

ـ ستشاهدين الان نوعا جديدا مبتكرا من الوسائلالتى قدتساعدك على الاعتراف بما نريد !

واقتيدت جميلة من حجرتها الى فناء واسع فى قلب السجن وكان يحيط بها عشرة من الضباط العسكريين .

وبدأ الرجال العشرة ينهالون على الفتاة الواقعة بين برائنهم ، ضربا وركلا ولطما ويلقون بها على الارض ويدوسونها بالاقـدام كلما حاولت الوقوف على قدميها .

ثم اقتادوها الى زنزانة جديدة غير تلك التى كانت تقيم بها ..وأهم ما كانت تحتويه هذه الزنزانة الجديدة. : « بانيو » كبير ومنضدة .

وأحكم وثاق جميلة احكاما شديدا من اليدين والقدمين . ثم أولجت عصا طويلة غليظة كعصا المكنسة بين كل من يديها وقدميها المكبلتين . ثم وضعت العصا الغليظة بحيث يرتكز كل من طرفيها على طرف البانيو. وبحيث تكون جميلة معلقة كما يعلق حيوانات العيد !..

وكانت عارية تماما ...

وابتدأت عملية الاغراق التدريجية فى البانيو الممتلىء بالماء لحافته. وبدأت جميلة تشعر بالغرق .

واقترب أحدهم منها وضغط بقبضتيه على ركبتها فارتفع رأسها من الماء .. فاندفع آخر نحوها ولطمها على صدغيها لطمات شديدة أسالت الدماء منهما .. وهكذا ..

كانوا يريدون منها أن تعترف بمكان اخوانها المجاهدين . وكانوا يلومونها أيضا ويعاقبونها لاعتقادهم انها قتلت كثيرا من الاطفال والنساء وبوضعها القنابل فى المقاهى الفرنسية ؟! ...

واعترفت جميلة ..

اعترفت انها وضعت قنبلة فى مقهى كوك هاردى وفى غيرها من الاماكن العامة التى يرتادها الفرنسيون وفى كل مكان آخر !...

وهنا استشاط الضباط القائمون بعملية تعذيبها غضبا وحنقا .

الويل لها هذه الجسورة الجريئة !

لقد انقضوا عليها انقضاض الصاعقة وألقوا بها فوق الارض.وطوقوا وسطها بحزام جلدى غليظ .

ولم يقيدوا ساقيها وأمسك الضابطان كل منهما باحدى ساقيها وأخذا يبعدان فيما بينهما حتى آخر مدى .. ثم .. !

وقالت لى جميلة مشيرة الى ذلك :

ـ كانوا يودون ارغامى على الاعتراف بأننى وضعت قنبلة بسجن الجزائر .

وفى سجن حسين داى كانت جميلة تقيم فى زنزانه مشتركة مع سجينة جزائرية أخرى هى ، زينب لاروسى .

وقد قصت زينب على أفراد عائلة جميلة وأقربائها ومعارفها

والجزائريات المقيمات معها بنفس السجن قصت عليهم عند خروجها ما حكته لها جميلة من تفاصيل تعذيبها ..

وعندما شعر الجلادون بأن جميله فقدت وعيها تماما وانها بالتالى لن تشعر بما يوقعونه بها من تعذيب آمروا بنقلها الى زنزانتها ...

وفى الزنزانه ألقى بها أحد الجلادين على الارض وهى فاقدة الوعى مضرجه فى الدماء التى أخذت تسيل منها بغزارة ... وقال لزينب فى صوت متهكم « ها هو خروف العيد » .

واستمرت جميلة طيلة ساعات طويلة دون وعى .

وبعد مضى عدة ساعات حضر بعض الممرضين وحقنوها ببعض الدواء

وعلى الرغم من أن مظاهر العطف الفائق والاشفاق والحب الشديد كانت تبدو فى نظرات زينب لاروسى لجميلة فان جميلة لم تحدثها عن أى شىء لاقته وكانت زينب تؤكد لجميلة انها متهمه سياسيه مثلها .

وفى أحد الايام جاء أحد الحراس وقال لها ان أخاها ينتظرها فى ردهة السجن ويود مقابلتها . وخرجت زينب من لزنزانة لترجع سريعا وتقول لجميلة :

جميلة اكتبى لى عنوان مراد وجمال وسأعطيها لاخى . فهو حصيف وماهر جدا . ويستطيع أن يخبرهما بكل ما حدث ويحدث لك . ويحذرهما من الخطر المحدق بهما . ويقول لهما أن يغيرا المكان الذى يقيمان به حاليا .

وهنا تستطعين أن تتكلمى وتعترفى بكل شىء . ويوقفوا عنك عمليات التعذيب هنا ...

« لشد ما أنا متألمة لحالتك ! ... لقد مكثت فاقدة الرشد طيلة ثلاثة أيام كاملة .. انك فتاة باسلة حقا !.. وكم أنا معجبة بك

« ولشد ما حزنت عندما رأيتك وأنت مضرجه فى دمائك عندما ألقوا بك هنا منذ يومين ...

« وعلى العموم فليس هناك أى خطر محدق بالاخوان » لان آخى سينذرهم ويجعلهم يغيرون مخبأهم ...

وأصرت جميلة على صمتها .. كانت تشتم شيئا غير عادى فى كلام زينب لها .

وبعد وقت قصير عندما نقلت جميلة الى سجن « باربوروس » علمت أن زينب ليست سوى جاسوسة وضعها الفرنسيون خصيصا فى زنزانتها للحصول على ما يرغبونه من معلومات !..

ومع ذلك فان زينب هى التى أخبرت الكثير من الجزائريات النزيلات بسجن « باربوروس » بما لاقته وتحملته جميلة من عذاب مبرح واعتداء

وحشى بشع أخبرتهم بذلك قبل أن تحضر جميلة الى هذا السجن بأيام قليله . وحيث سبقتها زينب اليه .

وفى ذات يوم فوجئت جميلة بقدوم نزيلة جديدة فى زنزانتهابسجن باربوروس . كان اسمها فيفى قحام . ولم تطمئن جميلة لهذه الفتاة واتبعت الحيطة والحذر فى حريتها معها .

اكتفت بأن تحكى لزميلتها الجديدة بأنها عذبت عذابا أليما ومكثت ثلاثة أيام دون وعى (١)

ونقلت جميلة بعد ذلك أى فى ٢٤ فبراير الى سجن «البيار» وأخذ أحد الاطباء يقوم على علاجها ويقدم لها أنواعا شتى من الادوية والعقاقير

وهنا بدأ الضابط يغير من تصرفاته حيال جميلة .. بدأ يقوم حيالها بمرحلة التأثيرات النفسية . وقابلت جميله التأثيرات النفسية هذه فى برود ولا مبالاة لم يكن صمودها لمؤثراتهم السيكولوجية ليقل عن صمودها فى وجه مؤثراتهم الارهابية

... بدأ الضابط « و » يصطحب جميلة للتنزه وفى احدى المرات قدم لها أحد الاشخاص المدنيين قائلا انه يود محادثتها فى أمر خاص . وبدأ هذا الشخص يحاول افهامها خلسة انه مهتم بموضوعها ويطلب منها أن تتحلى بشىء من الصبر حتى يحين الأوان .. وأن تحادثه عن كل ما يعتمل فى نفسها .. وأن تحضر للتحدث معه بين وقت وآخر الى أن يتم الافراج عنها « كانوا باختصار يحاولون استمالتها وضمها الى صفوفهم ... واخضاعها للعمل معهم ضد مواطنيها !.

وكان ردها لهم : مزيدا من الازدراء والاحتقار التام ..

وفى اليوم الثانى من اقامتها بسجن البيار تقابلت جميلة مع أبيها وحاولت بقدر استطاعتنا أن تنفى عنه بكل ما ألصق به من تهم ..

كما تقابلت أيضا مرة أخرى مع عبد الحميد زوج شقيقتها وأخبرته بما عانته من تعذيب .

واستمرت جميله تعانى من أوجاع دائمه شديدة فى رأسها كانت تضطرها الى الانحناء دائما أثناء سيرها .

وحاولت مرارا أن تقيم من عودةا عن مقابلتها السريعة لأمها وأختها نفيسة فى السجن .. ولكنها لم تستطع مطلقا .. لم تستطع سوى أن تجهش بالبكاء المرير وهى تحتضنها فى حزن بالغ ..

لقد أمضت جميلة ما لا يقل عن خمسة وثلاثين يوما فى معاناة أكثر صنوف العذاب والاعتداء شرا تحت أيدى جلاديها . أمضت هذه الفترة الطويلة دون أن يتمكن انسان من انتشالها وانقاذها من أيدى جلاديها السفاحين . ودون أن يتمكن أحد من سماع صراخها واستغاثتها .

ولذا اضطرت أن تضع امضاءها على كل ما قدموه لها من اعترافات ... ملفقة !

---

(١) فى ١٢ يوليو سنة ١٩٦٠ استعيت فيفى قحام للشهادة أمام المحكمة العليا . اكدت نفس أقوال جميلة وزادت على ذلك انها رأت خلال اقامتها معها كثيرا من الكدمات السوداء والحروق على جسم جميلة.

« فى هـــذا البلد الذى نملكه »

لقد قمت بحكاية هذا الكلام الذى قراتموه فى الصفحات الســابقة على مسامع المسيو شميلك المدعى العام بالجزائر فى اليوم التـــالى لوصــولى اليهــا .

وكان يبدو عليه التأثر البالغ اثنـــاء استماعه الى .
وكنت أشحذ كل قواى وابذل غاية طاقتى للحصـــول على تأجيـــل قضية موكلتى .

وفى نفس الوقت كنت أزمع تقديم اشكال للشكوى من حبســـها وتعـــذيبهــا ..

وكنت مصممة كذلك عند رجوعى الى باريس على أن افضح معالم هذه الجريمة الشائنة التى ارتكبت فى حـق الفتاة الجزائرية جميـلة بوباشـــا .

وكان على اذن أن أقوم خلال الجلسة الاولى بشرح مالاقته الجزائرية الباسلة ٣٥ يوما .. فى ساعتين اثنين لاغير . ولم تكن المهمة من السهولة بشىء .. ومضيت اقص على مسامع المدعى العام تفاصيل المأســـاة البشعة التى عانتهــا الجزائرية المكافحة وكان هو يستمع الى ومظاهر الغضب والحنق المكبوت تبدو على معـــالم وجهه .
وعندما بدأت أبين له تفاصيل البرنامج الذى أزمع تنفيذه فى عملية الدفاع فى قضية جميلة قال لى شـــميلك :

« نعم امضى فى اتخاذ كافة الاجراءات القانونية قدمى شكواك .. لامانع من ذلك ابدا وساعاونك اذا اعترض طريقك أى عائق . وانـــا أعـــدك بذلك . ولكن .. »

ثم اقترب ســـيادته منى قائلا فى أســـف :

ـ مدام حاليمى .. اكتبى ما اقوله لك .. لاتستعينى الا بالوسائل « القانونية » .. القانونية فقط .

وأخذت انظر اليــه مستغربة من قوله هذا قائله له :

ـ القانونية ... فقط ؟..

ـ نعم ..

وفى الواقع انه كان يتخير كلماته فى تادب ورقة لكى يفهمنى ما يعنيه دون أن يصدمنى :

ـ نعم ياسيدتى يجب الا يستفحل الامر وتتسع دائرة الفضيحة ومدها حتى آذان الصحافة المرهفة المتحفزة للانقضاض .. ثم اضاف مبتسما .

« انكم معشر المحامين تميلون كثيرا للسلاح الصحفى وتجدون فيه سندا عظيما لخدمة قضاياكم هكذا انتم معشر المحامين الباريسيين .. واظن أن هذه الوسيلة ياسيدتى لاتأتى دائما بما يرجى من ورائها من ثمار دانية مرتقبة » .

واعتقد أنه كان على حق فى كلامه هذا . فهذه الوسيلة نميل اليها فعلا نحن فى باريس كانت لاتجدى نفعا عندما تكون الفرصة قد مرت

ولكن فى قضية جميلة وغيرها من المجاهدين الابطال الابرياء .. لم يكن الوقت قد فات بعد وستكون هناك نتائج قيمة من ورائها

وكان الامر يتطلب أن أجاهر صائحة بتفاصيل ما أصابها من جرائم بشعة .. كان على أن استعين بالكتابة والصحافة والقول والقضاء .. وبكل شيء لكسب هذه القضية .. قضية جميلة بوباشا وغيرها من الاف الجزائريين الاحرار .

والتفت نحو المدعى العام قائلة :

ـ لم يحدث أبدا ياسيدى أن قام المختصون بنشر تفصيل كامل لهذه الوسائل البربرية الاجرامية .. على الرأى العام .. ليبدى رأيه فيها ؟.. عسى أن تتوصل اذن الى نشرها على الرأى العام .. ونظر الى المدعى العام وهو يهز رأسه فى حيرة :

حسنا . قدمى شكواك . وسنرى .. ثم أضاف :

لاتعتقدى أن الامور تسير فى الجزائر بالصورة التى قد تتبادر الى ذهنك ..

وعندما هممت بمغادرة مكتبه سالنى قائلا :

ـ وماذا عن القنبلة ؟ .. هل قامت بوضعها فعلا ؟..

فاجبته :

ـ لااعرف .. لست متأكدة . فهذا أمر لايهمنى كثيرا . فسواء كانت جميلة مذنبة ام بريئة فهى ليست سوى مواطنة جزائرية ..وعلى ان ادافع عنها بكل طاقتى فى أى حال من الاحوال ..

فاجابنى المـدعى العـام قائـلا :

ـ انه لبشع رهيب فعلا ذلك الارهاب الذى يتسبب فى ضحـايا ابرياء .

فاجبته باختصـــار .

ـ نعـــم ...

ولكن أهم ماكان يرهبنى فى هذه القضية هو الحرب الاجرامية .. حرب الغرور والمصالح الدنيئة الحرب المستعرة التى لابد ان يشنها على خصـــومى ساعتئذ .

وبما أن الســيد المدعى العام كان يبدى اهتماما كبيرا لمعرفة ما اذا كانت جميلة قد اقترفت أم لم تقترف فعلة وضع القنبـلة بالمقهى فاننى لم أتردد فى أن أشرح له الوسيلة الغريبة فى نوعها التى اتبعهـا احد القضاة فى الجزائر لافادته علما بموضوع قضية جميلة بوباشـا قلت حينئـــذ :

لقد تم اعداد ملف القضية كله « وطبخ » فى مدى يوم واحد لاغير هو ١٥ مارس عام ١٩٦٠ والعجيب ان هذه القضية التى بدأ لى بحثها فى سرعة الصاروخ نفسه .. هذه القضية المذهلة كانت تتضمن النواحى الاتيـــة :

١ ـ محضر ثبت انه عثر لدى جميلة على مستندات ادانة مادية

٢ ـ محضر للاستجواب فى القضية الابتدائية للمتهمة جميـــلة بوباشا . وهو يتكون من أربع صفحات كتبت بطريقة النسخ .

٣ ـ محضر بأمر القبض على جميـــلة .

٤ ـ محضر لنقلهـا من « جريمتها » بالمقهى الفـرنسى « وهو يتكون من صفحتين مكتوبتين بالنسخ به بعض الرسومات الموضحة »

٥ ـ قرار رسمى من القاضى لتعيين طبيب لفحص المتهمة جميلة عندما أعلنت انها لاقت تعذيبا شـديدا والطبيب هو الدكتـور ليفى لورى) .

ـ ـ محضر قام فيه الطبيب الذى تولى فحصها اى الدكتـــور ليفى لورى بحلف اليمين المقدس عن صحة ونزاهة شـهادته « وتبين بعد ذلك انه كاذب كذبا ضخما » .

٧ ـ قرار بالافراج عن جميلة بوباشا من « سجن الجزائر ونقلهـا الى مقر المحكمة العليا » لاتمام فحصها .

٨ — نتيجة فحص الطبيب ليفى لورى لجميلة .

٩ — قرار قيــام الدكتور ليفى لورى بفحص جميلة .

لقد جمع القاضى الذى قام بالتحقيق مع جميلة فى اول مرة كــل هذه «المستندات» فى مدة لاتزيد عن أربع وعشرين ساعة فقط استطاعوا فيها أن يطوقوا عنق الفتاة بالتهمة الملفقة .. وان يحطموا جســــمها بوسائل تعذيبها .. وأن يفحصوها طبيا .. ويقرروا ما بها ويقدموها للمحكمة ! .. لقد اســـتطاعوا أن يفعلوا كل ذلك فى يوم واحد !!.. ياللعجب ..

فمثل هذه الوسائل الشيطانية اضطرت جميلة ان تقرر باعترافها تحت الضغط والارهاب المدمر التى كانت تئن تحته .

وبدا واضحا تاكد مسيو شميلك المدعى العام أن كل هذه الدلائل والمستندات الرسمية قد تم فبركتها .. واعدادها فى سرعة ومهــارة اجرامية شيطانية !!.

ولكنه أراد أن يتأكد من فكرة لا بد كانت تشغل ذهنه .. فسألنى

— هل كان القــاضى من العســـكريين ؟

فاجبتـــه :

— لا .. بل مدنيا : انه السيد رئيس القضاة الابتدائيين .

ولم يسعه ســـوى ان يتمتم فى أســف :

— مسيو بيرار ..

ويبدو ان مسيو بيرار هذا كان مستعجلا للغاية لكى يســلم جميلة الى أيدى القضاة العسكريين ، لدرجة انه نسى ان يضم الى اوراق الملف المعــد اعدادا خاصا « تقريرا على درجة فائقة من الخطــــورة والاهمية فيبدو أن سيادته تناسى ان يامر بالقيام بالتحرى عن اخــلاق ومبــادىء جميلة بوباشــــا.

وقبل أن اقوم من مقعدى بينت للمدعى العام رغبتى فى تأجيــل القضـــية .

وأكدت له اننى سأمتنع عن الدفاع فى حالة رفض طلبى . وفى هذه الحالة لابد أن يقوم أشكال غير هين .

ووقف المدعى العام يحيينى وهو يقول فى شىء من الحرارة

أتمنى لك حظا ســعيدا ياســـيدتى ..

وبينما انا اهبط سلم المحكمة العليا الضخم الفائق الفخامة والابهة تقابلت مع كثير من زملائى المحامين الذين يعرفوننى حق المعرفة ... الذين اشاحوا بوجوههم بعيداً عنى وقعت انظارهم على ! . كنت أقوم بالدفاع عن فتاة جزائرية مجاهدة . !

ولم تعترنى اية دهشة لمثل هذا الموقف ..

وفى ذلك اليوم كنت قد اعطيت موعدا لوالدة جميلة وشقيقتها نفيسة للحضور لزيارتى بالفندق الذى أقيم فيه، وعندما حضرتا توجهت بهما الى غرفتى حيث جلسنا بمفردنا نحن الثلاثة .. ولكنى فوجئت بأحد المشرفين يدق باب حجرتى اثر دخولنا فيها ويقول لى . « هذا ممنوع ياسيدتى » ..

ونزلنا نحن الثلاثة معا الى الحديقة الواسعة المحيطة بالفندق حيث جلسنا معا فى مكان منعزل .. وهنا اخذت والدة جميلة تحتضننى فى حرارة وتوسل يائس وهى تقول لى بلغتها العربية .

— انها مثل اختك تماما .. يجب أن تنقذيها لى بأى حال من براثنهم .. ان الله لقدير وسيعينك ان شاء الله فى مهمتك ..

وكم احببت هذه السيدة العجوز ذات الوجه الابيض المستدير والفم الرفيع الخالى من الاسنان ؟! .. كم احببتها لطيبتها وحرارة حديثها الطبيعى الخالى من اى تصنع ، وكلماتها المتألقة حرارة وطيبة محببة — كم احببت فيها هذا التلهف المجنون لانقاذ فتاتها جميلة !! .. وكم احببت تلك الدموع المقدسة التى كانت تنساب رقراقة على وجنتيها المكتنزتين . !!

لم تكن مدام بوباشا تتكلم الفرنسية وكانت مفاهيمها بسيطة واضحة : فالعدالة الالهية ترتبط ارتباطا وثيقا بالامل فى تحرير وطنها ...

وبدأت والدة جميلة تسرد على مسامعى فى دقة متناهية اسماء المواطنين الجزائريين الذين تم القبض عليهم ... واخذت ترد فى مهارة وحذق فائق على كل ما اوجهه اليها من اسئلة وتحكى لى ادق تفاصيل السلب والنهب والتدمير والتعذيب التى يقوم بها الفرنسيون

ولذلك ايضا تبين لى الفرق الشاسع بين فرنسيى فرنسا الذين حاربوا الجستابو فى بسالة وشجاعة خلال الحرب العالمية الاخيرة وبين فرنسيى الجزائر الذين يتصفون باحط انواع البربرية والحقارة قالت لى :

انهم يريدون ان يسلبوا منا كل شيء .. الممتلكات .. الارض .. المال ، الوطن .. الشمس .. الحرية . بل الحياة نفسها !!

وفى الوقت الذى كنت انشغل فيه بالتحدث مع نفيسة كانت امها تشملنى فى صوت خفيض بسيل منهمر من الدعوات والتمنيات الطيبة .

وودعتها لكى اذهب الى المحكمة العسكرية حيث اعيد مراجعة الملفات .

وعند باب الفندق اندفعت والدة جميلة وشقيقتها نحوى اندفاعة حارة متدفقة بالحب واحتضنتنى كل منهما بقبلة .

وابتعدت السيدتان . وفجأة قبل ان تغيبا تماما عن ناظرى التفتت مدام بوباشا وصاحت بى ملوحة :

— لاتنسى ياحبيبتى .. ساعطيك عينى ثمنا لانقاذك جميلة !

واخذت اعيد مراجعة ملف قضية جميلة وكنت كلما تعمقت فى محتوياته كلما تبين لى فداحة الجرم الذى اقترف فى حق الفتاة البريئة وتاكدت عندئذ انه من السهل الهين جدا ان تلفق لاى مواطن فى الجزائر اية تهمة اجرامية وتثبت عليه ويحكم بادانته . ودون وجود اى دلائل للاثبات .

وبينما أنا أتطلع فى عجب فى التقرير الذى دونه الدكتور ليفى لورى بعد فحص جميلة وجدت انه يذكر انها تعانى من بعض الاضطرابات الخاصة بالعادة الشهرية والتى ترجع الى بعض الظواهر المعينة فى تركيب جهازها التناسلى »

وغادرت دار المحكمة الرسمية « باربوروس » حيث تسجن جميلة .

كان يبدو التألق . والحيوية على محياها الاسمر الجميل . وكانت ترتدى رداء نظيفا محتشما مكونا من قميص ناصع البياض مقفل بأزرار من العنق وجيب بليسيه غامق اللون ..

واخذت بل وسحرت من الجمال الطاهر النقى المشع من ملامح وجهها . وكان شعرها ملفوفا ومقصوصا فى هيئة « شينيون » جميل فى مؤخرة راسها .

وكانت تتكلم في صوت رخيم مرح .. والكلمات تخرج فرحة متألقة من شفتيها .. لقد عادت الى الفتاة التى حطمت وعذبت بالامس حتى

الموت .. عادت اليها الآن السعادة والرغبة الغامرة فى التمسك باهداب الحياة ، والاصرار على النضال .

وسـألتنى :

« ماذا يجب أن اقول فى الجلسة غدا .. ارجو الا اتفوه بتفاهات» ثم اضافت فى صوت كله ثقـة واعتداد :

ــ فى النواحى السياسية اعرف ما يجب على قوله . ولن احيد عن رأيى بحرف واحد ... » ثم استرسلت وكانها تخاطب نفسها:

ــ لقد صممت أن اناضل واضحى فى سبيل استقلال وطنى .. » فقاطعتها متسـائلة :

ــ لماذا ؟

ــ كيف ، لماذا ؟!! .. لان هذا هو الحق والعدل .. وعلى العموم لابد ان نصل الى أهدافنا فى القريب العاجل ....

وفى الواقع انى كنت اريد مناقشتها فى هذا الموضوع . وسألتها :

ــ كيف بدأت السير فى طريق السياسة ؟

فاجـابت :

ــ كنت أعمل وادرس فى مستشفى « بنى مسو » وقمت بسرقـة بعض الادوية من مخزنها واوصلتها لبعض الاخوان المجاهدين الـذين يقيمون فى الاحـراش المترامية .

وبالرغم من اننى كنت اؤدى عملى فى مهارة فائقة واحصل عـلى تقديرات ممتازة فقد فوجئت ذات يوم بقرار يفيد أن جميع المسلمات العاملات بالمستشفى سيطردن منه ! .. وهكذا بدون أى سبب !

كان كل شىء يذهب غنيمة فى ايدى الفرنسيين . اما العرب فليس لهم أى شىء .. ولكنى كنت أريد أن ادرس واتعلم لاصبح مخلوقة ذات قيمـة .

وبدت عيناها اكثر سوادا وهى تقول لى :

ــ ولكنى تبينت فى نهاية الامر ان العربى لايستطيع مطلقا مهمـا تعلم ومهما درس ومهما بذل ، لايستطيع ابدا ان يصبح شيئا له قيمة فى وطنه بدون أن يتحرر هذا الوطن .. اليس هذا ظلما بينا ؟

فاجبتهـا :

ــ لا ..

وهنا اندفعت قائلة فى ثورة جامحة :

ــ كل شيء لهم هتم ... ونحن لاشيء لنا مطلقا فى بلدنا !!

فقلت لهـــا :

ــ وددت أن اقول لك ان هذا هو الوضع الطبيعى فى مثل هـــذا النظام الاستعمارى الذى ترزحون تحت قيوده .

وهزت جميلة كتفيهـــا قائلة :

ــ الشيء الطبيعى هو ... ان نكون احـــرارا مســـتقلين فى بلادنا ثم اضافت كمن تستعطفنى متوسلة :

ــ الا تفهميننى ؟! ... اننا نستطيع ان نحب الفرنسيين كل الحب .. لو كنا احرارا مستقلين ... ويبدو ان هناك فكرة ما كانت تلح على عقلها فســـألتنى مستفسرة :

ــ أأنت تونسية أم فرنسية ؟ .

فأجبتها :

ــ أبواى تونسيان .. وتجنسا بالجنسية الفرنسية وانا فرنســـية الجنسية . وكذلك ابنائى .. ويبدو أن جميلة لم تجد من اللائـــق عندئذ أن تسترسل فى ابداء رأيها فى الفرنسيين . فقالت لى :

ــ قلت لك اننى سرقت تلك الادوية لاقدمها للمجاهدين .. وكنـــت اعتقد أن العمل والواجب الحقيقى الذى يتحتم على كل مواطن جزائرى ان يقوم به هو العمل أولا وقبل كل شيء لخدمة وطنه ... وبعد ذلك استرسلت فى عملى من اجل وطنى .. اخفيت المجاهدين فى كثير مـــن الاماكن .. بل كنت احيانا اخفيهم فى حجرتى ... هؤلاء الذين يبذل الجنود الفرنسيون جهدهم فى البحث عنهم ! ثم اضافت بسرعة كمن تخاف ان تداعب ذهنى فكرة غير ســـليمة :

ــ هل تعرفين ؟ .. ليس الامر هنا مثله فى فرنســـا ــ لا .. اننـــا نختلف اختلافا تاما عن الفرنســـيين .. ان « الاخوات والاخـــوة » يستطيعون ان يمكثوا معا فى حجرة واحـــدة دون أن يلمس الاخ اخته لمسة عابرة .. فنحن نقيم عندنا .. محكمة شديدة الصرامة والقسوة لكل من لايحترمون الفتـــاة ..

ولم أدهش للصرامة والتزمت الدينى الشديد الذى كانت جميلة تدين بـــه .

وفجأة حضرت حارسة السجن الى زنزانة جميلة ووجهت لـــى حديثها قائلة :

ــ لقـد حان وقت الانصراف .

فطلبت من جميلة أن تقوم بامضاء الشكوى التى اعددتها امس مساء لتقديمها فى الجلسة القادمة . فذيلتها جميلة بالامضاء التالى بخطهـا الدقيق الصغير الذى يشبه خط الاطفال : « جميلة بوباشا ــ السجينة بسجن الجزائر » . بتاريخ ١٧ مايو سنة ١٩٦٠ .

ونهضت واقفة لاغادرتها فسألتنى :

ــ « غـداً ؟ .. »

ــ نعم غدا . ولاتقولى أى شىء . سأتكلم انا لطلب التأجيل . . وسترين بعد ذلك ما يجب عمله .

ولكن جميلة كان يبدو عليها الاضطراب والخجل الظاهر : فاقتربت منها وربت على كتفيها لاشجعها على الحديث فسألتنى قائلة :

ــ اننى .. اننى لاعرف مايجب أن ارتديه من ثياب عند ذهـابى غدا الى المحكمة !! ..

وهنا شعرت بعبء التعب الذى كنت انوء تحت ثقله لكثرة مـا بذلته من جهود طيلة هذا اليوم ، وشعرت به يزول تماما عنى . . . واحسست بكثير من الراحة امام هذا المزيج العجيب من النضج المشبع بالآلام والاسى ومن الطفولة الانثوية البسيطة الساذجة التى تدعى .. جميلة بوباشـــا ! ..

ولم استطع الا أن انطلق ضاحكة لسؤالها هذا . واجبتها مازحة:

ــ يجب أن تختارى الفستان المناسب من دولابك الكبير الــذى وضعوه تحت تصرفك فى سجن باربوروس ..

فأجابتنى فى اهتمام .

سأرتدى تايراً كحليا املكه . هذا انسب نحو المحكمة وينسـجم كثيرا مع لون بشرتى ..

فقبلتهـا على وجنتيها ..

وبينما انا اغادر بوابة السجن الشاهقة كنت اقول لنفسى : اننى ميمونة الطـالع .

وبدأت قضية جميلة بوباشا مرحلتها القضائية ..

الجلسة الاولى

اليوم صباح ١٨ مايو . لم انل سوى قسط ضئيل جـدا من الراحة فى تلك الليلة .

لقد ظللت حتى الساعة الرابعة صباحا ادون وانقل نص عريضـة طلب التاجيل التى ساقدمها الى المحكمة .

ثم اغفيت خلال فترة قصيرة لأصحو فى السابعة صباحا .

وفى الساعة الثامنة خرجت متوجهة الى شـارع كافينياك .

لقد حضرت متأخرة قليلا عن الموعد المحدد لافتتاح الجلسـة .. هذا مع اعتبار ان قضاة هذه المحكمة العسـكرية العليـا يبدون على درجة ضئيلة من التجهم والعبوس فى وجهى ..

فرئيس المحكمة هو الكولونيل كاترينو . وفور دخولى الى قاعة المحكمة .. متأخرة عن الموعد المحدد وجه لى الكولونيل كلامه قائـلا فى تقطيبة عابسـة :

ــ سيادة المحامية .. ان المحكمة ليست تحت تصرفك .. !

وبدا لى ان العبوس والصرامة والتجهم طابع عام على وجه جميع هيئة المحكمة الحاضرة حينئـذ .

واحد فقط .. واحد فقط من ضمن هذه الهيئة الصارمة كـان ينظر لموكلتى جميلة باهتمام بين . كان هذا هو الضابط الذى يجلس على يسار رئيس المحكمة ..

اما جميـلة ....

جميلة كانت تجلس مرفوعة الهامة .. منصبة الرأس فى ثقة واعتداد رائع . وكانت ترتدى ساعتئذ تايرا كحليـا غامق اللون . وعقصت شعرها وراء راسها فى تسريحة طبيعية بسيطة تميل الى الخشونة .

وعندما رأتنى ادخل باب القاعة وانا مرتدية ثوب المحاماة اخـذت تنظر لى نظرة اعجاب باسـمة ولوحت لى بايماءة مرحة خفيفة .

فابتسمت لها واخذت مكانى بجوار المحامى الفرنسى المستوطن «ت» الذى اتى حسب اتفاقى معه ليعلن لهيئة المحكمة بعدم رغبته فى الدفاع فى قضية جميلة بوباشا .

وبدأ افتتاح الجلسة حسب القواعد المعروفة : قراءة اعلان المحكمة .. طلبى بتاجيل نظر القضية الى موعد آخر .. ثم نص الاتهام

وخلال ذلك كانت جميلة تنصت باهتمام بالغ .. ولم تكن عيناها تتحولان عن كاتب الدعاوى وهو يسرد القوانين والنصوص التى يجب ان تحاكم المتهمة بمقتضاها .

وحين انتهت تلك الاجراءات انسحب قبلى المحامى المستوطن الفرنسى «ت» .

وكانت قاعة المحكمة غاصة بعدد كبير من الحاضرين وبينهم بعض الصحفيين المحليين وكثير من رجال البوليس ، ومندوب الاستعلامات العامة فى الجزائر الذى يقوم بتسجيل كل صغيرة وكبيرة تدور فى هيئة المحكمة . وخاصة ان مهمته الرئيسية هى مراقبة « فئة المحامين المناصرين للمنظمة الجزائرية » ونقل كل ما يتفوهون به خلال دفاعهم عن المتهمين الجزائريين ..

وفى نهاية القاعة كانت تجلس والدة جميلة وشقيقتها نفيسة وفى المقدمة جلس بعض الشهود .

وحينما بدأت المرافعة طلبت السماح لى بالكلام .

فقلت اننى ملزمة حسب اوامر السلطات الفرنسية الا أبقى فى ارض الجزائر أكثر من ٤٨ ساعة .

ــ لم يتم لى أن أدرس ملف القضية دراسة وافية وكاملة . ولا شك أن المتهم له الحق كل الحق فى تحضير الدفاع اللازم له واحضار من يساندة من شهود ..

ولذا فانا أطالب بتاجيل نظر القضية حتى يتاح لى الاستعداد الكامل للدفاع .

ولاحظت اننى كلما مضيت فى حديثى هذا ازدادت علامات الدهشة والذهول الواضح من جراتى على بسمات حضرات الضباط أعضاء هيئة المحكمة العليا !!.

واخذت شرارات الغضب والثورة والامتعاض تتطاير من عيونهم وهم يصوبون نحوى نظرات حارقة :

تاجيـــــــل ؟! ....

انها لجريئة فعلا تلك المحامية .. لابد انها تخفى فى جعبتهــــــا أمرا ....

وبدا ان رئيس المحكمة بصفة خاصة كان لايحاول مطلقا اخفـــاء ما يعتمل فى نفسه من مشاعر العداء للمتهمة .. فكان يقاطعنى بـــين لحظة واخرى .. وينهال على بالاسئلة المتلاحقة .. ويعلق على كلامى فى عبارات غاضبة ثائرة

وبصراحة لم يكن الجو ملائما ابدا

وبدا أن جميلة كانتمتوترة الاعصاب بسبب الجو المكهربالعدائى الذى يحيط بنا وانحنت الفتاة على قاعدة المسند الموضوعة امامهــــا واخذت تطيل النظر الى من مكانها البعيد .. وكانها تحاول الاقتراب منى فى موقفى ..

تبا لهم ! .. ان الامر يتطلب منى كثيرا من الشـــجاعة والثبـــات .. بل كثيرا من الجراة والاقدام .. على أن أبدأ بشن الهجوم عليهم

كنت اعتقد أن التاجيل بالنسبة لنا هو بمثابة فرصتنا الذهبيـــة فبفضله ساتمكن من اعداد الدفاع اللازم وبفضله ايضا .. سأستطيـــع عند رجوعى الى باريس أن اعلنها وأطلقها فضيحة يدوى صـــداها فى كل مـــــكان .

ولكن كان هنـــاك عائق قانونى لا يســـتهان به عائق فعلى واضح المعالم قد يقف سدا فى سبيل طلبى بتاجيل نظر القضية .. وهـــو اعتراف جميلة بانها متهمة بوضع القنبلة !

وبدأت هجـــومى :

« أرجو أن تعلم هيئة المحكمة العليا المبجلة انها لو رفضتالموافقة على تاجيل نظر قضية موكلتى جميلة بوباشا .. واصرت على محاكمتها دون منحها الفرصة الكافية للدفاع عن نفسها دفاعا حرا كاملا ، فىهذه الحالة لايسعنى الا أن انسحب عن الدفاع فى هذه القضية .. »

ثم اضفت قائلة ..

« .. هذا وقد طلبتا من السيد Le Bâtonnier L'Alyer ان اعتبر تابعة لرئاسته فى الجزائر .. لقد طلبت من ســـيادته التكرم بحضوره هذه الجلســة .

فصاح رئيس المحكمة :

ـ « وأين هـــــــو ؟ ..

فحضر السيد نقيب المحامين ويدعى مسـيو لاكيير . وكان يمشى فى خطوات متثاقلة بطيئة . وكانه اراد خصيصا الا يوجه نظرة نحوى وهو يتجه نحو هيئة المحكمة ليساندنى فى طلب التاجيل . ولكنـه اضاف قائلا موضحا :

ــ وهذا حسب طلب Le Bâtonnier Orrighe بباريس

ووجد سيادته واجبا عليه أن يرد فى تعضيده لى بكلمة مناسبة عن « المذابح البشعة » التى تقوم بها المنظمة الجزائرية F.L.U. فى الجنود الفرنسيين الابرياء !!. وانه لايولى اى اهتمام لامثال جميـلة بوحريد او بوباشا أو غيرها .. ! وان السادة رجال القضاء الفرنسى فى الجزائر لايؤدون سوى واجبهم فيما يصـدرونه من احكام حـين تعرض عليهم احدى القضايا ..

لقد تغير الجو السائد فى ساحة المحكمة ! وبدت آيات التاثرواضحة على سمات هيئة المحكمة وهم يستمعون لهذا المقطع السياسى العاطفى المؤثر الذى القاه المسيو لاكيير على مسامعهم ..

وكان المنظر الممثل امامى هزليا مضحكا فعلا .. ولم يسـعنى سوى ان أتابع تطوراته .. كأى متفرجة « غريبة عن هيئة التمثيل »

وكان المسيو سويلر هو ممثل الحكومة الفرنسية فى القضـية ... وهو شخص بين المخاتلة والرياء . يطبع دائما على وجهه ابتسامة صفراء باردة وعندما جاء دوره لابداء الرأى صاح منفعلا :

ــ لا . لا اوافق مطلقا على التاجيل .. واضاف سيادته وهويشير الى جميـلة :

ــ ان هذه الارهابية يجب ان تنال جزاءها الحق ..

الادلة الدامغة التى يحتـوى عليهـا ملف القضـية لتدينها ادانة تامة .. ولا شك ان الدفاع يبذل محاولات عقيمة عرجاء فى سـبيل هذه الارهابية الماثلة امامكم .. »

.. وهنا اعلن الرئيس توقف الجلسة لكى تتشاور هيئة المحكمة فى طلب التاجيل .

فانتصب الجنود والضباط يؤدون لهيئة المحكمة التحيةالعسكرية لدى انصرافها الى غرفتها الخاصة للمداولة .

وخلال ذلك توجهت نحو جميلة التى كانت تتبع مايدور حـولها فى اهتمام شديد وعيون لامعة واخذت اتحادث معها : وكانت هىتحيينى وتسر الى اذنى ببعض المعلومات ..

واقترب منا بعض الحرس الحاضرين قائلين ان مثل هذا التصرف مني ومن موكلتي « غير لائق » .

ولكني عرفت كيف اوقفهم عند حدهم في عبارة جادة قاطعة وفجأة تعالى رنين الجرس ليعلن انتهاء المداولة . وابتداء عودة هيئة القضاة الى قاعة المحكمة .

وصاحت جميلة من مكانها بعد أن اخذ اعضاء هيئة القضاة اماكنهم

صاحت في صوت عال واضح النبرات .

— لو تركت محاميتي مهمة الدفاع عني .. فسانسحب معها !.

وهنا رأيت الحرس الواقفين حولها يفغرون افواههم دهشة مما يسمعون .

وقال رئيس المحكمة بادئا في تلاوة قرار هيئة المحكمة بخصوص طلب التاجيل .

— باسم الشعب الفرنسي ! ..

وهنا قام القضاة الاخرون باداء التحية العسكرية ومن مكاني اخذت انظر الى جميلة : كانت توجه نظرات القلق والترقب نحو هيئة المحكمة ..

وأصدرت هيئة المحكمة قرارها : بقبول تاجيل نظر القضية

ثم رفعت الجلسة . ورجعت جميلة الى زنزانتها في صحبة حرسها .. ورجعت انا الى الفندق حيث كانت تنتظرني مدام بوباشا وابنتها نفيسة .

في اليوم التالى ذهبت لمقابلة جميلة فى سجن « باربوروس » وقد لاحظت التغيير الواضح ألذى طرأ عليها فى خلال يوم واحد ..

كانت جميلة يوم أن قابلتها لاول مرة محطمة منهارة باردةالمشاعر والانفعالات . وآلان ... الان تبدو فياضة الحيوية بادية الرغبة فى النضال والكفاح الى آخر موى . كانت تود ان تعرف كل شيء .. من سيكون بجانبها بعد رحيلى الى باريس !.. متى سارجع ثانية الى الجزائر وهل سيوافقون على أن تقوم بالفحص الطبى طبيبة لا طبيب ؟ .. وهل وهل .. ثم قالت جميلة :

ـ أن « أخواتى » يكدن أن يطرن من شدة الفرح . انهن يعتبرن الموافقة على تاجيل نظر القضية كانتصار خاص لقضاياهن جميعا .. انهن يرغبن من اعماق قلوبهن ان يقابلنك لبعض الوقت .. كم سيسعدهن ذلك » .

وبدأت اشرح لجميلة النهج الذى سنسير عليه لعرض شكوانا من تعذيبها اى عليها أن تستجمع فى ذهنها كل صغيرة وكبيرة مما عانته واوقع بها وتصوغها لى بكامل الجزئيات والتفصيلات فى رسالة طويلة كاملة .

فاجابتنى :

ـ خلال المدة التى سانتظر رجوعك فيها ساكتب قصتى ..

وحانت لحظة السفر . السفر الى باريس واردت أن يكون وداعنا بسيطا مختصرا .

وكذلك حاولت جميلة أن تفعل نفس الشيء فقالت :

ـ أشكرك لكل ما فعلته من أجلى ..

فاجبتها وأنا أحاول السيطرة على انفعالاتى :

ـ سأحضر باسرع ما يمكننى يا جميلة . فها هى قضيتك فى بدايتها .

ولم تكن تذهب الى ما أقول .. كانت الدموع تنساب رقراقة على خديها . ونهضت مسرعة من مقعدها ثم غادرت قاعة الانتظار التى كنا مجتمعين فيها .

وكانت الحارسة تقف بجوار الباب . فجرت خلفها وأمسكتها من يدها لتعود بها الى زنزانتها .

وبينما أنا أهم بمغادرة غرفة الانتظار فوجئت بسجينتين جزائريتين تندفعان فى أثرى . فاستدرت لاشعر بأذرعهما تطوقان عنقى .. وتقبلان وجنتى ثم تفران هاربتين خوفا من بطش الحرس وهما تلوحان لى من بعيد : «وشكرا .. على ما حدث هذا الصباح .. لجميلة »

***

كانت طائرتى المتوجهة الى باريس ستقلع فى تمام الساعة ١٦ .

وبينما أنا خارجة من بوابه السجن شاهدت « بوبى » وهو الزميل الوحيد ضمن جميع زملائى المحامين الذى لم يتخذ حيالى الموقف العدائى المستحكم منذ أن قررت القيام بالمرافعه فى قضية جميلة بوباشا .

دعانى « بوبى » لتناول الغداء معه فى أحد المطاعم العامة ...

وبينما نحن نتناول طعام الغداء أخذنا نتحدث معا عن الوضع السياسى الجائر وعن اخواننا الفرنسيين المستوطنين فى الجزائر ، وعن مسيو شمياك الذى لقينى بعد انتهاء الجلسة وهنأنى فى حرارة صادقة قائلا :

ـ هذا نجاح مؤكد .. أهنئك .

والغريب انى لاحظت أن زميلى المحامى بيير بولى كان دائم التلفت حوله فى خوف ووجل ظاهر . وهممت أسأله عن سبب قلقه الواضح . ولكنه أسرع يوضح لى تصرفه معتذرا :

ـ أنت تدركين ان الامور هنا ليست طبيعية اننا معشر التقدميين الاحرار من الفرنسيين نحظى بعدم رضاء السلطات الفرنسيه عنا .. بل انهم يعتبروننا أشد خطورة من أعضاء جبهة التحرير الوطنية الجزائرية ومن الشيوعيين .

وأضاف فى صوت هامس :

ـ رجال البوليس هم الذين يجدون فى مراقبتنا وتتبعنا .

وودعت بولى بعد أن وعدنى بمكالمه تليفونية عندمايحضر الى فرنسا . وركبت الطائرة الى باريس ..

أما بولى فانه لم يتصل بى تليفونيا .. وأعتقد اننى لن أراه الى الأبد .. لقد « وجدوه » أخطر من ان يعيش . فهو يعضد نضال الجزائريين من أجل الاستقلال ..

من اجل جميلة بوباشا

قمت بتحرير رسالة الى « مارلو » . ولا تظنوا أن « مارلو » هذا هو الكاتب الفرنسى الشهير أو حتى وزير الدولة الفرنسى القائم بالاعمال الثقافية المسمى بنفس هذا الاسم انه لا هذا ولا ذاك . بل هو الشخص الوحيد فى الحكومة الفرنسية المسئول رسميا عن هذه العبارة :

لا يقوم العسكريون الفرنسيون بتعذيب الجزائريين .

قمت فى خطابى لمارلو بسرد كافة الوقائع الخاصة بالقضيه وأضفت ما يلى :

« وهذه الوقائع تعتبر على درجه قصوى من الاهمية . وهى لا تعتبر كشيء منفرد قائم بذاته . بل هى متصلة اتصالا وثيقا بالطريقة السائدة فى انزال أقسى وسائل التعذيب بالمتهمين قبل عرض قضايـــاهم أمام القضاء .

ولعل سيادتك لا تجهل وجود هذه المنازل والفيلات التى يتخـــذها المختصون كمراكز لاتمام عمليات التعذيب البشعة فى معظم أفراد الشعب الجزائرى (... ان الجيش يقوم فى الجزائر بعمليات التعذيب على أوسع مدى ممكن ...)

ولم يكلف الكولونيل مارلو نفسه بمهمة الرد على شخصيا . بل جعل مدير مكتبه يرد على خطابى قائلا : انه أرسل صورة من خطابى الى مسيو أدموند بتسليم وزير القضاء الفرنسى وصورة أخرى الى مســـيو ميسمير وزير الحربية فى فرنسا .

وقد أعطيت للكاتب الكبير فرانسوا مورياك صورا لكافة الخطابات التى وجهتها لمختلف نواحى السلطات الرسمية العليا فى فرنسا بعد أن قصصت عليه موضوع جميلة بوباشا بكامل تفاصيله .

وكنت لم أره منذ الاحداث التى وقعت فى تونس عام ١٩٥٢ منــذ أن توجهت اليه أنا وبعض زملائى المحامين نرجو مســـاندة قلمه فى طلب العفو عن بعض الفدائيين الذين صدر الحكم باعدامهم حينئذ عنـدما تغير نظام الحكم .

وطلبت من الكاتب الكبير أن يشحذ قلمه لتنطلق منه صرخة مدوية فى أنحاء العالم أجمع لانقاذ المجاهدة الجزائرية ..

ولكن فرانسوا مورياك خذلنى .. لأنه جبن عن الدفاع بكلمة واحدة فى قضية جميلة بوباشا .. أو قضية جميع الجزائريين الاحرار .

فى يوم ٢٣ مايو أى بعد اصدار قرار تأجيل القضية بما لا يزيد من خمسة أيام بعثت لى المحكمة العسكرية العليا الجزائرية انذارا رسميا بأنه ستبدأ محاكمة المدعوة جميلة بوباشا فى الجلسة التى ستنعقد بتاريخ ١٧ يونيه القادم فى تمام الساعة الثامنة والنصف .

ها هم الارهابيون قد بدأوا يشنون هجومهم على : لا بد أن هيئة القضاء العسكرية كانت تود بأسرع مايمكن وبدون اى جلبة أوضوضاء الانتهاء من موضوع جميلة بوباشا .. ولا بد أيضا أن هيئة المحكمة المبجلة تأسفت كل الاسف لما اظهرته من « ضعف » غير لائق بموافقتها على طلب التأجيل الذى قدمته ! فهاهى تحاول جهدها تعويض الشعور بهذه الغلطة :

وبدات أدون سلسلة أخرى من الخطابات الى المسيو باتان ميشليه وزير القضاء » الخ ..

ولا شك ان كافة خطاباتى تجمعت فى النهاية فى مكان ما بمقر الوزارة بقصر « الاليزيه .. »

واذكر أننى فى مساء اليوم السابق لرجوعى من الجزائر الى باريس كنت قد ذهبت لمقابلة مسيو دانييل ماير رئيس هيئة حقوق الانسان « وعندما انتهيت من سرد تفاصيل قصة جميلة على مسامعه . فوجئت به يأخذ رأسه بين يديه ويتمتم فى ألم :

ـ ماذا يمكن أن يقال .. ماذا يمكن أن يقال عن كل ذلك » .. ثم بكى .. خزيا وعارا .!

وفى نفس اليوم كان مسيو دانيل ماير يعقد اجتماعا عاما ليصرف فيه بعض شئون الهيئة التى يرأسها ..

. وفى هذا الاجتماع تحدث سيادته عن جميلة ولفت انتباه الحاضرين الى وجودى بينهم وطلب منى الحضور الى منصة الخطابة . ومضيت اتكلم .. وأتكلم وخيم السكون على القاعة الغاصة بالحاضرين .. وغشت الوجود سحابة من الوجوم والألم . والسيدات قد أجهشن بالبكاء . وقد علمت بعد الانتهاء من كلامى أن احدى السيدات نقلت من القاعة مغشيا عليها عندما سمعت تفاصيل التعذيب والاعتداء البشع الذى لاقته المجاهدة جميلة ..

وقام أحد الصحفيين فى اليوم التالى بتخصيص مقال هام فى جريدة « لوموند » عن موضوع جميلة .. وكان حاضرا أثناء الاجتماع .. وجاء مقاله تحت العنوان التالى :

« لجنة المعونة تتبنى موضوع جميلة بوباشا »

وفى اليوم التالى شعرت برغبة شديدة للالتجاء الكاتبة الفرنسية الكبيرة سيمون دى بوفوار . وفى الواقع لم أكن أستطيع تحديد الوسيلة التى عزمت دى بوفوار على معاونتنا بها . ولكنى كنت متيقنة يقينا تاما أن تعضيدها لقضيتنا يكون نزيها ونظيفا ١٠٠ فى المائة وغير محدود المدى ..

فاتصلت بها تليفونيا فى الحال ، وبعد حوالى ساعتين ذهبت لمقابلتها فى أحد المقاهى الواقعة بميدان دنفر روشورو ..

وسردت عليها كل شىء : التعذيب ، مصير عائلة بوباشا . القضية التى بدأت فى ١٨ مايو الماضى ، طلبى السابق للتأجيل . ثم التاريخ الذى حدده القضاة العسكريون لمحاكمة جميلة بمقتضى الاعترافات التى أخطروها اليوم بها بطريقتهم الخاصة .

وأجابتنى سيمون فى بساطة رائعة :

ـ « نعم سأساعدكما .. »

وبدأنا نبحث سويا فى الرسائل الفعالة التى سنتبعها لا حداث وتفجير رد الفعل فى أوساط الرأى العام ..

وقررت سيمون دى بوفوار أن تتخذ جريدة « لوموند » الكبرى كقلعة حصينة تصوب منها هجماتها ..

***

وفى مساء اليوم سافرت الى الجزائر وفى هذه المرة لاحظت أن موكلتى الشابة جميلة بوباشا قد غدت بين جموع الشعب الجزائرى .. كرمز حى للبطولة والبسالة والكفاح .

فى ٢ يونية ظهر بجريدة « لوموند » أول مقال لسيمون دى بوفوار عن جميلة فى « باب الرأى الحر » وكان تحت عنوان :

« من أجل جميلة بوباشا » ..

كان المقال رائعا . رائعا بكل معنى الكلمة ، رائعا فى أسلوبه الشيق الجذاب .. رائعا فى الشجاعة المتضوعة من كل كلمة من كلماته .. لم يكن فيه أى لون من ألوان التصنع أو الرغبة فى استمالة المشاعر . بل كان يفرض نفسه على القارىء ويشير بأصبع الاتهام لما جاء به من وقائع وحقائق دامغة واقعية . قالت سيمون دى بوفوار

في نهاية مقالها : « من أجل جميلة » أن قضية جميلة بوباشا لتهم جميع الفرنسيين دون استثناء » ..

لقد سردت سيمون فى مقالها كل كبيرة وصغيرة من مأساة جميلة لم تهمل أى شيء سردتها بكامل التفاصيل منذ اللحظة التى انقض فيها الجنود الفرنسيون على منزل عائلة بوباشا حتى قضية التحقيق الاولى التى بدأت فى ١٨ مايو السابق .. والقضية التى ستبدأ فى ١٧ يونيه القادم ويرغبون فى تلفيقها وكتم صداها بأى طريقة ممكنة ..

وكتبت سيمون فى مقالها حرفيا :

« وقاموا بدفع زجاجة بيرة داخل جزء حساس من جسم الفتاة الجزائرية العذراء .. »

وقد استعملت سيمون الكلمة الصحيحة الطبية لهذا الجزء من جسم الفتاة وهى «رحم» ويبدو أن رئاسة تحرير الجريدة رأت ألا تخدش حياء القراء الفرنسيين بذكر كلمة « رحم» .. فغيرتها بكلمة بطن » ..

ولكن هذه الدقة والمحافظة المتناهية على مشاعر القراء . لم تمنعهم من فهم ماتعنيه سيمون . ولم تتأخر سيمون ايضا عن أن تقول هذا الرأى فى صراحة رائعة واقدام فذ :

.. « وعندما يوافق الحكام بأن ترتكب الجرائم باسم الوطن فان جميع المواطنين يكونون شركاء فى الجرائم المرتكبة » .

وكانت خطوط معركة سيمون دى بوفوار من أجل جميلة بوباشا، واضحة ظاهرة المعالم .. ارغام المختصين على تأجيل الجلسة المحدد عقدها فى ١٧ يونيو المقبل .. ورعاية مصير أسرة بوباشا ومن تجرؤا للدفاع عنها والشهادة فى صالحها .. وتوقيع العقوبات القاسية على جلادى « سجن البيار » وحسين داى . هذه هى أهم عروض سيمون دى بوفوار لكل من لم يرغب فى أن يكون شريكا فى الجرائم المرتكبة فى حق جميلة وأسرتها وغيرها من المواطنين الجزائريين ..

وكان المسيو ميشيل دى بريه أول من وقف للرد على مقال سيمون دى بوفوار .. وكان رده عليها عبارة عن أمر بمصادرة جريدة «لوموند» الصادرة فى ٢ يونية .. أى التى نشر بها مقال سيمون دى بوفوار من أجل جميلة بوباشا ! .. فمن المعروف أن هذه الوسيلة تعتبر من الطرق الدارجة المعتادة حكوميا لالقاء الستر الكثيفة على أى موضوع شائك .. محرج ! ..

بل أن سيادة المسيو دى بريه قام بمهمة اذاعة بلاغ رسمى

بالاذاعة اللاسلكية الفرنسية قصد به وضع الامور فى نصابها : «قال البلاغ : »قامت احدى الجرائد المسائية بنشر مقال خاص بعمليات تعذيب لفتاة جزائرية متهمة بجريمة سياسية فى شهر سبتمبر عام ١٩٥٩ بالجزائر ..

ونود هنا أن نشير الى أننا قمنا حتى قبل أن يظهر المقال المشار اليه فى الجريدة المسائية قمنا باجراء تحقيق قضائى بمحكمة الجزائر بناء على طلب المتهمة . وذلك رغبة منا فى تحديد مدى صحة الوقائع التى ذكرتها .. »

كما قامت « لجنة حماية حقوق وحرية الانسان » بالاهتمام بدراسة هذا الموضوع وبدأت البحث والدراسة فيه منذ فترة »

« وعلى المحكمة العليا للقوات المسلحة بالجزائر » ان تصدر ما تراه من أحكام حسب أحوال القضية المعروضة أمامها ومع اعتبارها الكامل لكافة عناصر وأحداث القضية ، وخاصة الاعترافات التى اقرت بها المتهمة ..

ولا شك ان المحكمة ستصدر حكمها هذا دون التأثر بأى عامل خارجى ..

ومما هو جدير بالذكر أن الحكومة قامت باذاعتها لهذا المرسوم وباذاعة تفاصيل قضية يحتم القانون أن تكون فى طى الكتمان . وذلك لان جميلة لم تكن قد تمت محاكمتها بعد . والقانون ينص على ذلك .

والواقع ان السلطات الحكومية فى باريس قد أخطأت خطأ فادحا فى مهاجمتها لمقال سيمون دى بوفوار فى جريدة لوموند ، لانها عملت بذلك على أحداث موجة شديدة من رد الفعل فى أجواء الرأى العام .. ولفتت الانظار اليها فبدأ العالم كله يهتم بموضوع جميلة بوباشا ..

انهالت الرسائل على «لوموند» من كل صوب وحدب من داخل فرنسا نفسها .. ومن ايطاليا .. ومن انجلترا .. ومن الاتحاد السوفيتى ومن كوستاريكا .. ومن مصر .. ومن اسرائيل .. وكانت هذه الرسائل كلها مع اختلاف الجهات التى أرسلت منها تشترك فى ظاهرة واحدة .. فهى انتفاضة هائلة جبارة ، فى وجه الظلم والوحشية المنكرة .. وهى تعبير قوى عن الثورة والاشمئزاز البالغ على كل ما اقترف فى حق الابرياء من امثال جميلة .

لقد قال أحد القراء الفرنسيين فى خطابه الى جريدة لوموند :

« لقد كنت أحد افراد فرق المقاومة الفرنسية التى عاصرت بربرية

ووحشية الجستابو .. وكل ما جاء بموضوع سيمون دى بوفوار عن المجاهدة الجزائرية جميلة بوباشا .. يذكرنى بأحط وأسفل أساليب ووسائل الجستابو » ..

وأرسلت أحدى القارئات الفرنسيات تقول آسفة « كنا نعتقد فى سذاجة وطيبة أن النظام الحاضر استطاع فى مدى سنتين أن يمحو أثر هذه الاعمال المروعة .. »

وكان آلامر يتطلب عملا ايجابيا ، وتلقت سيمون دى بوفوار ضمن تلال الخطابات التى أخذت تنهال عليها من كافة أنحاء العالم هذه الرسالة من أحد المواطنين فى باريس :

سيدتى .. اننى لست شخصية مرموقة . وما أنا سوى مواطن بسيط مغمور كغيرى من الملايين العديدة . ولكن لو رأيت أن امضائى يستطيع أن يساهم فى نصرة قضية جميلة بوباشا على جلاديها فأنا اقدمه من صميم قلبى .. »

وكتب لها أحد القساوسة الامريكيين يقول : « انك تكافحين من أجل جميلة بوباشا باسم العالم أجمع . ومن أجل تسديد خطى العالم الى سبيل الهداية »

وتعتقدسيمون أن الخطاب الذى سكب فيه كاتبه أبلغ آيات الالم والتقزز هو الذى وصلها من مدرس فرنسى . وقد جاء فيه :

« رجائى أن تقولى للآنسة بوباشا أننا معشر المدرسين نشعر بالخزى والعار من أجل فرنسا .. بل نشعر بعجزنا عن المضى فىتلقين تلاميذنا ما تتضمنه الكتبالفرنسية منمبادىء سامية وأخلاقيات .. »

واستمر سيل الخطابات الجارف ينهمر على لوموند وعلى سيمون دى بوفوار ولم تكن مجرد خطابات عادية للتعبير عن آراء عدد من القراء .. بل انفعالات دافقة متأججة الحرارة بالغة التعبير عما يعتمل فى قلوب مرسليها من عواطف الخزى والاشمئزاز والاستنكار البالغ ..

***

وبدأنا انا وسيمون دى بوفوار نبحث معا عن أهم السبل التى ستبدأ فيها معركتنا من أجل جميلة بوباشا « لاحاطة الرأى العامالعالمى علما بها واشراكه فيها مشاركة فعلية » .

وقد وجدت فى المسيو لوران شوارتز رئيس لجنة أودان ووجدت فيه تعضيدا قويا لقضيتنا ورغبة صادقة فى معاونتنا . فهو الذىكان

أول من مهد لنا مهمة نشر أول مقال لسيمون دى وفوار عن جميـــلة فى جريدة « لوموند » ..

وهوأول من نشر مقالا للاهابة بالرأى العام أن يرفع صوته فىوجه السلطات من أجل تبرئة الجزائرية المجاهدة التى لم تقترف أى ذنب.

ولا شك أنكم تتذكرون قصة الشاب «أودان» الذى حـــدثتكم عنه فى أولى صفحات هذا الكتاب . انه هذا الشاب الفـرنسى المثقف الذى ذهب ضحية شجاعته ونزاهة ضميره لقد وقف يجاهر بتعضيد الجزائريين الاحرار فى قضينهم ويدافع عنهم فى بســالة وأقدام .. وذهب «أودان» شهيدا ضحية شجاعته ودفاعة عن الحق ..

وكان من الواضح أن معظم الذين راسلوا سيمون دى بوفوارمن المهتمين بموضوع جميلة يصرون على أن تظل قضية جميلة ماثلة أمام الرأى العام يكافح فى سبيلها حتى النهاية . كانوا يطالبون ليس فقط بالتنديد بوسائل التعذيب والارهاب ولكن ينادون أيضا الكاتبة الكبيرة أن ترأس حملة الدفاع المنظمة من أجل درء التهمة الموجهة الى جميلة والدفاع عنهـــا ..

ومنذ هذا اليوم قررت سيمون دى بوفوار أن تنظم لجنـــة فعليـــة « من أجل جميـــلة بوباشا .. »

وكانت تعرف أنها يجب أن تقوم بنشاطها فى هذه اللجنة بطريقة واقعية ملموسة .. فلم يكن من المستبعد أبدا أن تصبح جميـــلة رمزا حيا معينا . كما أن الضرورة كانت تقتضى أن يوقع بمن عذبوها أقسى أنواع العقاب المادى ، ويذيع صداه فى « كافة انحاء العالم »

ولا شك ان البرنامج كان متشعب الاطراف محفوفا بكثير من الامل والرجاء والاحلام . ومع ذلك فان فرصة النجاح كانت محتملة.

وفرانسواز ساجان نفسها . هذه الفتاة الرقيقة التى كانتتخشى دائما ولوج أبواب السياسة . فرنسواز ساجان لم تتأخر مطلقا فى أن تقتحم معنا حرمة النضال الفكرى المنظم « من أجل جميلة »

وكنت قد قابلت فرانسواز ساجان فى بلدة ايكموفيل التى تقيم فيها بصفة دائمة . وحينما انتهيت من سرد وقائع قصة جميلة بوباشا على مسامعها قامت فورا بالاتصال بجريدة « الاكسبريس » وطلبتأن يكون موضوعها فى الاسبوع القادم عن قضية جميلة بوباشا .

وبذلك انضمت ساجان الى لجنة النضال «من أجل جميلة بوباشا» وكان مقالها الذى صدر حينئذ فى جريدة «الاكسبريس» تحت

عنوان « الفتـاة والسـمو » ، ذا أثر عظيم على ملايين القـراء الذين يطالعون يوميا «الاكسبريس» وبدأت مئات وآلاف الرسائل تنهـال على فرانسـواز ..

وقد يتبادر الى ذهن البعض منا أن فرانسـواز لا تولى اهتمامها الا لمشاكل «وجود» نوع معين من الشباب ولكنى لا أظن ذلك . فقـد اظهرت فرانسواز فى مقالها السياسى الاجتماعى عن جميلة بوباشـا حكمة وفصاحة ونزاهة رأى فائقة رائعة ..

وتعالت صيحات الاعجاب والتقدير لها من كافة أنحاء العالم ..

بل ان الكثير من القراءالذين كانوا لا يروق لهم الجوالعاطفىالرومانتيكى الذى كانت فرانسواز تضفيه على معظم قصصها ، كثير من هؤلاءالقراء أيقنوا بأن فرانسواز سـاجان بلغت فى مقالها عن جميلة ذروة النجاح والسـمو » ..

واحدى الدلائل العديدة على ذلك ، هـذا الخطاب الذى تلقتـه فرانسواز ساجان ضمن عشرات المئات من الخطابات الاخرى :

سـيدتى .. ..

اننى سيدة متقدمة فى السن . ولا أستطيع أن أقول اننى كنت أميل كثيرا الى نوع القصص التى تكتبينها فلا شك أن هذا النوع من الشباب القلق المستهتر الذى ترسمين ملامحه فى قصصك لا يسبب أى شعور بالسعادة والرضاء لجيلنا نحن الكبار المسئولين عنـه .. ولـكن ..

ولكن هذا لا يمنع أننى معجبة كل الاعجاب بمقالك عن جميـلة بوباشا فهو يدل دلالة قاطعة على استيعابك الشـديد لمأسـاة هـذه الفتاة المجاهدة كما أنك عبرت عن آرائك وعن وقائع هذه المـأساةفى براعـة نادرة ..

سـيدتى : لقد شعرت انا أيضا مثلك بكثير من الخزى والعار، بعد قراءة مقالك .. مما فعلته فرنسا فى حق أمثال هؤلاء المجـاهدين البواسـل ..

أشـكرك على حسن تعبيرك عما أردت قوله ..

وضمن الخطابات العديدة التى تلقتها فرانسواز من كبار رجال الفكر والقلم العالميين كانت من :

جان أمروشى ــ ايميه سيزار ــ لوسى فور ــ ادوار جليسان ــ رينيه جوليار ــ البروفسور جورج لافو ــ ميشيل ليرلس ــ دانيل ماير ــ هيلين بابلين ــ أندريه فيليب ــ اندريه بوستفيناى . و ب. ليكيه ...

جان بول سارتر ـ لوران شوارتز ـ تانجى برمجنت ـ بيير هنرى تيتجنت ـ جيرمين تيليون .. الخ ..

وكانت هذه الاسماء اللامعة فى ميدان الفكر قد انضمت الى لجنة الكفاح من أجل جميلة بوباشا .. » ورأست اللجنة سيمون دى بوفوار ..

وبهذه الكيفية أخذ مجال الاهتمام والمشاركة بالرأى والفكر فى قضية جميلة يتسع ويتضخم وأخذ هدير الرأى العام العالمى يشاركها فى محنتها ويندد بجلاديها وتمالى هذا الهدير حتى وصلت بعض صيحاته الى آذان الفتاة الجزائرية المجاهدة المعتقلة خلف جدران زنزانتها فى «سجن الجزائر» . وفى ١٥ يونية أرسلت جميلة «للجنة» التى نظمت من أجلها خطابا رقيقا تأنقت فى كتابته ذيلته بالعبارة البسيطة الآتية :

« خلال اقامتى فى معسكرات التعذيب تصورت أن العالم رجع القهقرى الى عصور البربرية والهمجية .
أما اليوم .. وبفضلكم أنتم فاننى اشعر بكثير من الامل .. »

العـــذراء .. الحـــائرة ..

بالرغم من الخطوات المتعددة والاجراءات الكثيرة التى قامت بهـا «اللجنة» لكى تؤجل نظر قضية جميلة عن تاريخ ١٧ يونية عام ١٩٦٠ بالرغم من كل ذلك لم تنجح مساعينا .

وكان على جميلة اذن أن تمثل ثانيا أمام نفس قضاتها العسكريين ومعها ملف قضيتها الملفق ..

وكان على أن أتوجه الى الجزائر لكى أطالب هناك بتأجيل نظـــر القضية بالرغم من أنى كنت لا أنتظر أية نتيجة من وراء مثل هذا التصرف : وذلك لان رئيس المحكمة الكولونيل كاترينو وهيئة قضاتهـا شعروا أنهم خضعوا لممثلة الدفاع عن جميلة عند الموافقة على طلبهـا بتأجيـــل القضيـــة ..

وقمت بمحاولة أخيرة للوصول الى ما نريد ، فاتصلت بالمسيو م. رئيس لجنة المعونة . وطلبت منه ان يساندنى فى طلب التأجيل فيرسل تعزيزا تلغرافيا الى الجزائر لطلب التأجيل . ويخبرهم فى نفس الوقت بازماعه الوصول هناك فى مساء يوم ١٧ يونيه ..

ولكن مسيو بانان أكد لى أن المحكمة العسكرية العليا تتمتع بالسيادة الكاملة والبحث النهائى فيما تصدره من قرارات . ومع ذلك فقـــد أرسل اليها مساندته التلغرافية لطلبى فى التأجيل . وأضاف سيادته قائلا :

— ومن يدرى .. فقد تسير الامور على مايرام . فلا شـــك أن الرئيس « كاترينو » لن يرأس هيئة المحكمـــة المقبلة .. ولا بد أنهم سيضعون مكانه قاضيا مدنيا ..

وفى الواقع أنه كان محقا فى تفاؤله هذا . ففى ذلك الحين أمـــكن الغاء نظام المحاكم العسكرية بالجزائر الذى صدر على وجه التحـــديد بتـــاريخ ٤ يونيـــة عام ١٩٦٠ .

وجاء دور السـفر مرة أخرى الى الجزائر .. وجاء دور نفس الاجراءات المضنية الصعبة .. ونفس المسرحيات الهزلية التى يجب أن أمر بها حتى يسمحوا لى بالسفر ! ..

وبعد سلسلة متتابعة من الصعوبات استطعت أن أحصل على اذن للاقامة هناك مدى سبعة أيام كاملة .

وقد حدد يوم ١٧ يونيو لنظر قضية جميلة بوباشا . ومع ذلك مما يثير العجب حقا أن قرار الاذن بسفرى الجزائر كان يتضمن النقط الاساسية الآتية ..

السفر الى الجزائر : فى ٧ يونية
الرجوع الى باريس : فى ١٤ يونية (!!!)

انهم يعرفون اننى ذاهبة الى الجزائر بخصوص الدفاع عن الجزائرية جميلة بوباشا ولذا فقد سمحوا لى متكرمين بالمكوث فى الجزائر طيلة سبعة أيام كاملة ، بشرط .. بشرط أن أغادرها قبل البدء فى نظر القضية !! .. الا يبدو ذلك مدهشا حقا ؟.

وبدأت أعترض .. بلا جدوى ..

وسافرت الى الجزائر آملة ان أتمكن هناك من حمل هيئة البوليس على أن تقنع المسئولين بالتراجع عن هذا القرار « الفريد من نوعه » .

***

واثر قدومى الى الجزائر توجهت الى سجن «باربوروس» لرؤية جميلة .. وبينما كنت أقطع الدهليز المؤدى الى قسم الحريم بالسجن كنت أتساءل عن الحال التى قد أجد عليها جميلة .. حزينة .. بائسة متألمة متأثرة .. حائرة ؟ !!

وعندما رأتنى جميلة مقبلة عليها اندفعت نحوى وعانقتنى . وظلت فى وضعها هذا هنيهة دون أن تقوى على النطق بكلمة واحدة . ثم جلست على أحد المقاعد وهى مازالت على صمتها ثم .. ثم نهضت ثانيا لتقبلنى قائلة :

ـ كم أنا سعيدة لانك استطعت أن تعودى ثانيا .. كم أنا سعيدة بذلك ! . . . . »

واخذت أقول لها انها لاتقف الان بمفردها فى محنتها هذه .. وأن صدى اسمها يتعالى فى الوقت الحالى فى كافة انحاء العالم . وأن الموضوع الذى كتبته سيمون دى بوفوار من أجلها « قد أحدث دويا هائلا وان عدد كبير من خيرة الكتاب والادباء قاموا بتكوين لجنة خاصة الدفاع عن قضيتها ..

وبدأت جميلة تصور لى من مخيلتها ما عسى أن يكون عليه شكل سيمون دى بوفوار .

ـ لا بد أنها رائعة الجمال .. أليس كذلك .. أتعتقـــدين انني سأستطيع رؤيتها فى يوم من الايام ؟!

وزادت ابتسامتها اتساعا وهى تقول لى أن مدير السجن أمر بعدم توصيل عدد من جريدة «لوموند» الذى نشر فيه مقال ســـيمون دى بوفار اليها ولكنها مع ذلك استطاعت ان تقـرأه ورددت فى حمـاس بالـــغ ..

ـ ياله من مقال ! .. هيه ! .. ياله من مقال حقا ! .. ان كل الجزائريين الاحرار المكافحين فى حاجة الى كاتبة قديرة مثلها ! ..

ثم سرحت جميلة ببصرها فى لاشىء كانت تبحث فى أعمق أعمـاق نفسها عما تستطيع أن تعبر به عن مشاعرها الفياضة المتأججـــة .. وقالت وهى ترفع رأسها عاليا ..

ـ انهم يردون أن يركع الشعب الجزائرى خاشــعا على ركبتيه امامهم، هل نعيش راكعين ؟ ! ..

مستحيل .. لا .. مستحيل ! ..

ثم زاد انتصاب قامتها وهى تردد هامسة وكأنها تحادث نفسها .. .. الموت أفضل من ذلك .. »

وأخذت تترنم بكلمات أغنية عربية قديمة شائعة بين المجاهدين الذين يحاربون المحتل ويذيقونه الويلات من داخل أحراش الجزائر :

من جبالنـــــا
يرتفع صـــــوت
رجالنا الاحرار..

وهنا وجدتها تقبل على كما تقبل فى كل مرة يخيل اليها فيها أنها اظهرت فى حضورى شيئا من المقت والكراهية :

ـ جيزيل .. يجب أن تفهمينى جيـدا ... وانتم جميعا هنـاك .. يجب أن تعرفوا أننا لا نكرهكم ولا نمقتكم .. اننا مثل الذين تحرروا حديثا .. ومثل كل انسان طبيعى فريد أن نكون أحرارا مستقلين ..

واضافت جميلة زيادة فى اقناعى :

ـ هبى أن ابنيك جـزائريان .. وثقى انهما حينئذ كانا سيحملان السلاح ويفعلان نفس ما نفعله نحن « الاخوة والاخوات » .. من المؤكد .. من المؤكد أنهما كانا سيفعلان ما نفعله نحن الان من أجل حريتنا . »

وفى الفندق عندما اجتمعت بوالدة جميلة وشقيقتها نفيسة اخبرتها أننا نقوم بجهد كبير لكى تنقل جميلة الى فرنسا حيث تتم محاكمتها هناك .. ولم تزد اجابة مدام بوباشا على رغبتها هذه عن قولها :

– « اذا كان ذلك أكثر فائدة .. فاننى أضع ابنتى بين يديك .. انها ستكون كشقيقة لك .. »

***

ها هو قد حان يوم ٤ يونيو سنة ١٩٦٠ .

أو بمعنى آخر اليوم الذى تم فيه الغاء المحاكم العسكرية فى الجزائر وابدالها بمحاكم مدنية ..

وبذا ستمثل موكلتى جميلة بوباشا أمام السيد القاضى المدنى مسيو كاترينو .. بدلا من القاضى العسكرى .. الكولونيل كاترينو !

فالشخص الذى سيقوم بمحاكمتها بعد قانون الغاء المحاكم العسكرية هو نفسه الذى قام بمحاكمتها أثناء قيام هذه المحاكم .

والفرق الوحيد الملحوظ بين قاضى المحاكم العسكرية والمحاكم المدنية هو الزى الذى يرتديه القاضى .. فقد كان الكولونيل كاترينو يرتدى قبل يوم ٤ يونيو سنة ١٩٦٠ الزى العسكرى الرسمى المزين بالنياشين والاوسمة خلال عقد الجلسات .. أما بعد اعلان هذا القانون فلا شك أنه سيستبدل الزى العسكرى المزركش برداء فضفاض قرمزى اللون . كالذى يرتديه رؤساء المحاكم الجزائرية .. ومع ذلك .

فان الثوب لم يكن أبدا معبراً عن حقيقة من يرتديه .. هذا ما أكدته لى جلسة ١٧ يونيه بمقر المحكمة العليا بالجزائر .

كنت فى باريس حينئذ أقوم ببعض الاجراءات الهامة ..

وفى هذا اليوم قامت الصحافة الفرنسية فى الجزائر تعلنها حربا شعواء على الفتاة الجزائرية المجاهدة جميلة بوباشا فأطلقت عليها هذه الصحافة المأجورة أكثر من اسم واسم : واصفة الفتاة بانها « الارهابية رقم ١ » ..

بل لقد بلغت السفاهة ببعض هذه الصحف المحلية أن وجهت اللوم لجميلة لانها كانت تبدو فى قاعة المحكمة على درجة واضحة من الاناقة بهذا التايير الكحلى الذى كانت ترتديه وبحذائها الابيض الناصع ..

بل أن البعض رأى فى تسريحة شعرها المنسقة بعناية ظاهرة .. كثيرا من الجسراة والتبجح (!!!)

وعندما بدأت الجلسة أعطى القاضى الكلمة لممثل الحكومة .. وبدأ هذا الاخير يقوم بسرد تفاصيل التحقيق السابقة ..

ولا شك أن مهمته يومئذ بدت على درجة فائقة من السهولة .. لان المحامين الباريسيين لم يكونوا حاضرين وأنهى سيادته الكلمة بأن القضية تتطلب التأجيل ..

وجاء دور الاتهام ..

وقف ممثل الاتهام يعلن عن وضع يده على مستندات جديدة أستطاع العثور عليها أخيرا ، وهى تتطلب مزيدا من الاستجواب والتأكد ..

وأول المستندات التى رأى سيادة ممثل الاتهام وجوب وضعها فى ملف القضية هى جريدة « لوموند » الصادرة بتاريخ ٢ يونيو سنة ١٩٦٠ ..

ثم أضاف قائلا : ان الكاتبة سيمون دى بوفوار ومعها ممثلة الدفاع و « أحدى الصحف » قد لجأن الى طريقة غريبة فى مساندتهن لجميلة بوباشا .. وهذا يحتم وضع الكاتبة والجريدة وممثلة الدفاع فى موضع المتهمين بسبب هذا الموقف المشين !!

المستند الثانى عبارة عن تقرير لشخص يدعى الكولونيل فولليه .. والتقرير مدون بتاريخ ٣ يونيه عام ١٩٦٠ أى قبل أن تبعث جميلة بعريضة شكواها بخصوص مالاقته من تعذيب . وقبل تقديم هذه العريضة بما لا يقل عن أسبوعين وقبل أن يظهر مقال الكاتبة سيمون دى بوفوار فى جريدة لومونز ، بيومين اثنين ، ويبدو أن المستند كان على درجة بالغة الخطورة فقد توج بهذه الكلمة الضخمة « سرى جدا » ..

وفى هذا المستند كتب الكولونيل .. موليه تقريره فى خط بديع وتعبير ملىء بالاناقة وهو يؤكد فيه تأكيدا قاطعا ان جميلة لم تقع تحت طائلة أى تعذيب ...

ولم تعامل الا معاملة طيبة حسنة .. وأن السلطات المختصة أمرت احد الاطباء بالكشف عليها ولم يجد هذا الطبيب على جسمها أى أثر من آثار التعذيب والحرق والضرب مثلما ذكرت جميلة فى مذكرة شكواها .

كما يذكر التقرير العجيب أن جميلة كانت تجاهر وتتحدى قائلة

أنها قامت فعلا بوضع القنبلة فى المقهى الفرنسية عندما قام مسيو باتان رئيس لجنة المعاونة بزيارتها فى السجن . كما قامت بوضع قنبلة اخرى بجوار المقعد الذى يجلس عليه فى مكتبه سيادة رئيس لجنة المعونة .

ولكن عناية الله هى التى منعت من انفجار القنبلة التى وضعتهـا جميـلة ..

وأخيرا قال الكولونيل فى تقريره : ولا شك أن هذه الزوبعة القائمة من أجل المدعوة جميلة بوباشا لاتعدو أن تكون فى الواقع سوى حمـلة منظمة من بعض الدوائر الصحفية والفكرية ذات الميول السياسية المعينة

وهنا رد عليه هذا القول ممثل لحكومة فى انفعال واضح « بل هى حركة صحفية مخزية !!

وأجابه الزميل المحمى المفروض انه عين للدفاع عن جميلة :

« بل تصرف مخز من الصحافة الفرنسية فى باريس وعمل شائن اقترفه المحامون الفرنسيون . »

ومما هو جدير بالذكر اننى طلبت من القاضى أن يقوم باستجواب المسيو باتان رئيس لجنة المعونة بخصوص ماجاء فى تقرير المدعو الكولونيل ماليه من أن جميلة حاولت تفجير قنبلة بهذه اللجنة فقام القاضى فعلا باستجواب مسيو باتان الذى أجابه بخطاب مسجل بتاريخ ٢٩ اغسطس سنة ١٩٦١ « سيدى القاضى أحيطكم علما بأننى لم أقابل مطلقا المدعو مسيو موليه هذا بل لم أسمع حتى بوجوده وليس أى علم بكل ماجاء فى تقرير المسيو الكولونيل موليه » ولم يحدث أن سمعت جميلة بوباشا تتفاخر أو حتى تشير الى قيامها بوضع أى قنبلة فى أى مكان ..

ولكن الذى سمعته من جميلة انها قالت عند ذهابى لمقابلتها فى سجن باربوروس بأنها بريئة كل البراءة من التهمـة الموجهة اليها . وأنهـا ترغب فى تقديم شكوى عما لاقته من تعذيب وارهاب اثناء التحقيـق معها ولم يحدث ان وضعت جميلة بوباشا قنبلة ما فى أى مكان من مكتبى قبل اعتقالهـا ..

الامضاء
م . باتان

وبعد ان انتهى ممثل الاتهام من تفنيد «مستنداته الجديدة» وجد الرئيس أنه من اللائق أن يتولى التعبير بنفسه عما يجيش فى صـــدره .. فقـــال :

« وانا لا يسعنى سوى ان أقدم خالص الثناء والتقدير للمحامين المستوطنين بالجزائر والذين يؤدون واجبهم فى نزاهة وصدق مرموق..

ثم أعلن انتهاء الجلسة بعد أن صدر قرار بتأجيل نظر القضية الى تاريخ آخر . أما جميلة فقد امتنعت تماما عن الكلام وقالت للقاضى .

« اننى لن أدلى بأى قول الا فى حضور محاميتى الاستاذة جيزيل حاليمى » .

جان دارك الجـــــزائر

بدات الخطابات والتلغرافات تنهال على رئيس الجمهورية من كافة أنحاء فرنسا ومن كثير من البلاد الاجنبية ..

فقد اينعت مجهودات اللجنة واثمر نضالها وأحدثت صـــدى مدويا فى آفاق الرأى العام ..

وبدا واضحا أن جميلة لن تدان على تهم لم تقترفها والصقت بها زورا وعدوانا ، وخاصة أنها اضطرت الى الاعتراف بها تحت ضغط الارهاب القاسى والعذاب المميت ..

ويبدو أن تأجيل القضية فى الجلسة السابقة ساعد مساعدة فعالة على انضمام اعداد هائلة من المتحمسين لقضية جميلة الى «اللجنة».

فأهم الاصوات التى انضمت اخيرا الى لجنتنا من أجل جميلة بوباشا كلها من الكتاب المعروفين أندريه شوارتز ـ بارت ـ فرانسواز ماليه ـ جوريس الزارتريوليه ـ وكل من الفلاسفة : جابرييل مارسيل وموريس مارلليوبونتى . والكاتب القدير جيل روس الذى بلغ الذروة والامتياز فى مقاله الرائع ..

والاديب فيوكور . والكاتب بيير كوت ، وشارل أندريه جوليان .

وكل من الاطباء : ويل هادلى ـ ود الزاس ـ ولاكان وغيرهم من عشرات المئات الذين منحوا اسماءهم ومجهوداتهم ومعونتهم المادية .. لكى تسير العدالة القضائية فى طريقها الحق ..

وأهم ما أخذت اللجنة تعمل من أجله وقتئذ : نقل القضية بأكملها من بين أيدى قضاة الجزائر الى القضاء فى فرنسا نفسها . فلم يكن من المعقول مطلقا أن يتولى الذين لقنوا ما يحتويه ملف جميلة من مستندات زائفة التحقيق فى شكوى جميلة مما لحق بها من تعذيب وارهاق واعتداء منكر ...

وفى الواقع أن عملية نقل مهمة التحقيق فى قضية الفتاة الجزائرية من أيدى قضاة الجزائر الى قضاة باريس لم تكن من السهولة فى شيء بل كانت على درجة كبيرة من الصعوبة من الناحية القانونية .

وكان من الضرورى أن يقوم وزير العدل نفسه بطلب اجراء هذا التنبيه .

وقرر مندوبو « اللجنة » القيام باتصالات مع مقر رئيس العدل للحصول منه على الموافقة بنقل قضية جميلة من أيدى قضاة الجزائر الى باريس .

ولم يكن مسيو ميشليه يجهل مدى ذيوع مأساة جميلة فى فرنسا كلها وما أحدثته من دوى فى كافة أنحاء العالم .

فذهبنا لمقابلته فى مقر وزارته الواقعة بميدان فاندوم بباريس ولم يصعب علينا عند وصولنا الى غرفة مكتبه أن نرى على مكتبه عددا كبيرا من كافة الصحف التى أشارت او أسهمت فى موضوع جميلة بوباشا .

ثم توجهنا بعد ذلك الى المسيو « باتان » للحصول على تعضيده وموافقته وكان الوفد مكونا من أربعة أشخاص .

سيمون دى بوفوار . والكاتبة جيرمين تيليون . والمجاهدة الفرنسية القومية أنيس بوستل فيتاى وأنا .

وعند وصولنا الى مقر الوزارة فى الموعد المحدد وجدنا سيمون دى بوفوار تنتظرنا هناك . فهذه هى عادتها عند أى موعد . وحضر أيضا المواطن الفرنسى أندريه بوشل فيتاس . وقد قدرنا فيه هذه الشجاعة والاقدام الباسل فهو يشغل وظيفة هامة بالحكومة الفرنسية . وبالرغم من ذلك لم يتأخر ولم يجبن عن الاشتراك فى عمل يؤدى الى مساندة ومساعدة مواطنة جزائرية من أعضاء جبهة التحرير الوطنى اذاقها العسكريون الفرنسيون أشد وأقسى ألوان العذاب .
وطلب الموظف المختص « لجنة بوباشا » بالانتظار فى غرفة صغيرة مجاورة لمكتب المسيو باتان رئيس لجنة المعونة .

وبعد بضعة دقائق أذن لنا بالدخول الى مكتب مسيوباتان .
وبعد أن بينا للمسيو باتان سبب مجيئنا أخذ سيادته يتفحص كلا منا على التوالى ثم بدأ يتكلم .

« لا شك أن هناك أحوالا معينة لا يعتبر الضباط مسئولين فيها ففى بعض الاحيان مثلا عندما يغادر هؤلاء الضباط أماكن عملهم أثناء الليل .
وبعد ذلك قد تمكث السجينة بمفردها بين أيدى بعض الحراس الشبان الفاسدين »
ويبدو انه قرأ على وجوهنا عدم فهم لما يعنيه فاستطرد موضحا :
« أعنى هؤلاء الشبان من السعاة أو الحراس الذين قد يقترفون أعمالا مشينة بعد انصراف الضباط من عملهم ليلا ...!

ثم استدار مسيو باتان نحو سيمون دى بوفوار وقال لها فى صوت جعله متهــــدجا متأثرا :

« سيدتى . يؤسفنى أن اقول لك أنك جرحت كثيرا شـــــعور هؤلاء الضباط الشرفاء فى مقالك .. لقد قابلت بعضهم فى الجزائر ... واستجوبتهم فرأيت أنهم على خلق قويم وتربية عالية .

ثم استطرد قائلا :

انهم ظرفاء طيبون .. بل هم من عائلات مرموقة !!

وأجابته سيمون دى بوفوار

سيدى . كونهم ظرفاء ويبون فى حياتهم العادية لا يعنى مطلقــا انهم لا يتحولون الى وحوش ضارية عند قيامهم بعمليــات التعــذيب للجزائريين الاحـــــــرار .

وهنا حاول سيمون باتان أن يستعين بالوسائل العنيفة فقــــــال لها » ولا تنسى يا سيدتى انك قد ارتكبت خطأ لا يقره القانون بنشرك هذا المقال عن جميلة بوباشا فى جريدة لوموند » .. !!

وهنا تدخلت انا قائلة :

أنا التى أعطيت لسيمون دى بوفوار كافة الوقائع والاحـــــــداث المذكورة فى مقالها وبينت له أن حكم القانون لا يتأثر من نشر تفاصــيل القضايا العادية أو تفاصيل قضايا التعذيب والتنكيل وقضية جميــلة قضية تعذيب بحتــــة ..

لكن سيمون أصرت على تحمل المسئولية فقالت له :

لقد وجدت يا سيدى من اللازم جدا أن اكتب هذا المقال ...

وراى مسيو باتان أن يتراجع قليلا عن موقفه الهجومى فأجــاب فى صوت ناعم النبرات

على العموم فانا لست متاكدا مما اذا كان الســـيد وزير الدفاع سيقدم شكوى بخصوص هذا المقال أم لا .. سنرى .. سنرى »

ورأيت حينئذ أن نعود ثانيا بمسيو باتان الى موضــوع جميــلة بعد أن بدأ ميله للخروج عن نطاقه فقلت له :

لقد قضيت مالا يقل عن خمسة وثلاثين يوما بين أيدى جـــلاديها الذين اذاقوها أمر صنوف العذاب واشنع ألوان الاعتداء ..

وكان اندريه بوستل فنياى يشخص أمامه فى نظرات ســــــاهمة

جامدة ووجه شاحب فاستدار برأسه ناحيـــة الرئيس « وقال له فى صـــوت متهدج .

اننى أعضد حركة تحرير الجزائر . وأنا أعلم تماما أن عمليـــات تعذيب الجزائريين فى الجزائر تدور على أوسع وابشـــع نطاق . وأنا أعارض هذا الامر وأستنكره استنكارا تماما. وأطالب بعرض الشكوى المقدمة من المجاهدة الجزائرية جميلة بوباشا على محاكم باريس ..

ولاول مرة منذ قدومنا الى مكتب المسيو باتان يبدو أنه غير واثق تماما من موضع خطاه فقال فى صوت يفيض بالقلق :

يجب توضيح كل شيء فى هذا الموضوع »

ثم استدار نحـــوى قائـــلا :

ولا شك أن التجاء المحامى لبعض النواحى الدفاعية قد لا يفيـــد كثيرا قضية موكلة ... »

وهنا شعرت بمراجل الغضب تغلى فى صدرى فاندفعت صائحة فيه:

هل تعضد عمليات التعذيب والقتل ؟ وهنا صـــاح مسيو باتان معترضا وقد علا وجهه شيء من الشحوب .

«لا . لا تلصقى بى ما لم أقـــله ...

وهنا لجأ كل من جيرين تيليون واتيس بوستل فيتاى بتهـــدئة الجو الذى بدأ يتوتر ويحتـــد

أن موقفه لصـــعب حقـــا ...

فلا شك أن الدور الموكل له برياسة هذه اللجنة الهزلية .. كان فائق الخطورة والدقة فهذه اللجنة لاتعدو أن تكون ســـوى ستـــار تختفى وراءه كثير من الخدع الزائفة والتدبيرات السياسية . لم تكن لجنة المعونة تقوم بأى معونة !!.. الا لغة الجلادين العسكريين فى الجزائر

وفجأة قال الرئيس » ..

« وعلى العموم فهى غير لطيفة اطلاقا .. جميلة هذه !

لقد تقابلت معها فى السجن .. وتقابلت أيضا مع أبيها .. وجميع افـــراد عائلتهـــا : »

ثم صمت سيادته وتنفس نفسا عميقا استعدادا للامر الخطـــير الذى يود أن يلقى به فى وجه الحاضرين .. وقال فى صـــوت عال :

ــ انهم لا يحبون فرنسا !! ...

وهنا ردت عليه سيمون دى بوفوار قائلة :

أبعد كل ما شاهدوه وما عانوه من فرنسا .. وبعد ما اخترقنــا يطون عذاراهم بالزجاجات تدهشون لانهم لايحبون فرنسا ! ..

وتوقف لسان الرئيس تماما عن الكلام . لم يجد ما يقوله. وحاول أن يهرب من السكون الرهيب المطبق على الحجرة ، بتقليب بعض الاوراق الموضوعة أمـــامه .

وفجأة اخترق هذا السكون الثقيل صوت هادىء .. قوى النبرات

« لو وجدت ابنائى فى يوم من الايام مضطرين للاشتراك فى مثــل هذه الحرب الشائنة الدائرة حاليا فان اصــوب نصيحة ســـاقدمها إليهم : التمرد على الجيش .... »

كان المتكلم اندريه بوستل ميتاى صاحب المنصب الكبير بالحكومة الفرنســـية ..

وقامت زوجته اتيس بتأييد قوله تأييدا كاملا :

ولم يجد مسيو باتان شيئا يقوله سوى أن يهز راسه قائلا فى اصرار عجيب :

« انها غير لطيفة .. غير لطيفة اطلاقا هذه الفتاة .. وهنا اجابته سيمون دى بوفوار فى صوت حاد :

المهم فى موضوعنا هنا هو ليس لطفها أو عدم لطفها . المهم هــو تحقيق الشكوى التى قدمتها تحقيقا ايجابيا نزيها .

ولكن الرئيس أصر على رايه فى جميلة فقال :

« انها تعتمد نفسها جان دارك الجزائر !!. .»

« انها تعتقد نفسها جان دارك الجزائر !! .. »

وهنا غادرت جيرمين تيليون مكانها معلنة انتهاء المقابلة ، وقالت :

لكننا بدون استثناء عندما كنا فى العشرين كنا نعتقد أنفســـنا .. جان دارك »

وعند سماع هذا الكلام لم يسع رئيس لجنة المعونة سوى ان يظهر مخالبه ثانيا من غلافها الناعم فصاح محتدا وقد تضرج وجهه احمرارا من الغضب :

ولكن الامر يختلف كثيراً يا سيدتى . انت ... « انت فرنسية .. اما هى .. .. »

وأسرعنا بالخروج من غرفة رئيس لجنة مساعدة ومعونة « شعب الجزائر !!

١٢٥٠٠ فرنك من أجل فرنسا !!

فى هذا الوقت كان اهم ما يشغل بال رجال القضاء القائمين بنظر قضية جميلة بوباشا ، هو اخفاق كافة المساعى التى تبذل للتحقيق بطريقة سافرة مخزية فى الشكوى المقدمة من جميلة بوباشا بخصوص عمليات التعذيب التى لاقتها على أيدى العسكريين الفرنسيين فى الجزائر .

كان على الرأى العام كله يقف مترقبا يتساءل هل فى الامكان عقاب من اقترفوا جرائم اعتقال وتعذيب بوباشا وعائلتها بدون أى ذنب جنوه :

اذن فقد بلغت القضية مرحلة لا يستطيع عندها أكثر القضاة مكرا وخبثا حفظها واخفاءها فى طى الكتمان والنسيان .

ومع ذلك فان اعمال الخداع والتلفيق والتضليل التى بدت واضحة بصفة خاصة فى جلسة ١٧ يونيو ، هذه الاعمال والترتيبات والتنظيمات المعينة لم تكن تسبب لنا اى طمأنينة .

هذا وقد قررت هذه المحكمة ان جميلة بوباشا فى يوم ٨ يوليه القادم للتأكد من سلامة قواها العقلية على الكشف الطبى وكان على الطبيب المختص أن يحدد ما اذا كانت جميلة تعانى من حالة جنون ، وما اذا كانت ذات خطورة ، أو ما اذا كانت ذات أهلية لتحمل اى عقوبة قانونية، أو ما اذا كانت قابلة للشفاء .

وعندما تلقيت خبر هذا القرار العجيب تأكدت تماما ما يدور فى عقول القضاة العسكريين من افكار .. كان رأيهم هذا يعبر أجلى تعبير عما يدور بذهنهم وما يهدفون الى تحقيقه .

كانوا يودون الصاق صفة الجنون بجميلة ويجعلونها بذلك غير مسئولة عن « واقعة القاء القنبلة » ...

وفى نفس الوقت تنعدم قيمة دفاعية الشكوى التى قدمتها جميلة ضد جلاديها .. وبالتالى تخفت وتهدأ كافة الاصوات التى تعالت مطالبة بازاحة الستار عن حقيقة عمليات التعذيب وعن شخصيات الجلادين الذين قاموا باقترافها

وكان هذا هو معقد آمال رجال البوليس والفرنسيين المتطرفين فى الجـــزائر .

وبينما انا موجودة بباريس أرسلت اجميلة دعوى بالتوجه فى يوم محدد الى عيادة سجن الجزائر .

ووكل الدكتور شارل بادونات للقيام بهذه المهمة . وبعد ان اطلع الطبيب الشاب على أوراق جميلة أخذ يوضح لها الفرض من وجودها فى حضرته . أما عن رد جميلة على كلامه هذا فهو مبين فى التقـــرير التالى الذى أسرع الطبيب بتدوينه فى دقة ومهارة فائقة :

« .. قلت للمدعوة جميلة بوباشا اننى مكلف من لدى هيئـة المحكمة للقيام بالكشف على قواها العقلية للتأكد من سلامتها أو عدم سلامتها والمدعوة جميلة بوباشا تتكلم اللغة الفرنسية فى طلاقة تامة .. وقد أكدت لى انها تلقت اشارة رسمية تخبرها بتفاصيل هذا الامر .

ثم وقفت المتهمة تقول انها تعترض اعتراضا تاما على اى كشـف يجرى عليها وخاصة انها لم تتلق من اللجنة القائمة برعاية شئونها اى أمر بالموافقة على ذلك .

ثم قالت لى المدعوة جميلة : لابد انهم « يودون بذلك خلـــع صفة الجنون على لاننى قمت بتقديم عريضة شكوى فى حقهم .

وزادت على ذلك اننى لا أستطيع مناقشتها فى اى موضوع اخـــر لا يختص بموضوع الكشف الذى كلفت باجرائه عليها . ولكنها رفضت أن أبدأ عملية الكشف على قواها العقلية . ويلاحظ أن رفضهـــا كان يتســـم بالادب والتحفظ الظاهر .

وعلى ذلك فلم يسعنى سوى أن انسحب من هذه المهمة رافعـا هذا التقرير معلنا عدم استطاعتى القيام بما وكل الى من مهمة بـــكل ما تقتضيه من نزاهة ضمير وشرف مهنة .. »

وبنفس أسلوب السيد الطبيب المهذب المتادب كتب الى القضـــاة العسكريون خطابا يطلبون منى أن أبذل جهدى مع جميلة لكى توافق على اجراء الكشف عليها لمعرفة حالة قواها العقلية ..

وبنفس أسلوبهم المهذب المتادب.. ومراعاة لمبادىء العدل والنزاهة وسيرا على مناهج قوانيننا العادلة .. رفضت طلبهم .

وليس هناك أدنى شك فى أن القضاة المدنيين فى الجزائر كانوا يقدرون فداحة المسئولية الملقاة على كاهلهم . وهى القضاء على قضية جميلة بوباشا واخماد تأججها بأى طريقة ممكنة . وكذلك حماية ومساندة الضباط العسكريين التابعين لهيئة القضاء فى الجزائر بكافة الطرق والوسائل الممكنة وانقاذ سمعة القضاة العسكريين الذين ساهموا قبل ذلك فى التحقيق مع جميلة وفى محاكمتها . لاشك أن برنامج العمل أمام هؤلاء القضاة المدنيين كان متشعبا واسع المدى ، ثقيل العبء .

وكان الامر يتطلب البدء فى تنفيذ أولى مراحل هذا البرنامج الضخم وأولى مراحله هى :

تعيين رئيس للقضاة للقيام بالمحاكمات التالية . وقاموا فعلا بتعيين هذا الرئيس . وليتهم ما فعلوا . . فلم يكن هذا الرئيس سوى القاضى بيرار . هذا الذى قام بمهمة قاضى التحقيق فى أول مرة مثلت فيها جميلة أمام المحكمة العسكرية حيث لفقت لها تهمة القاء القنبلة وحيث انتهكت ابسط قواعد العدالة ولحق انتهاكا شائنا .

وأمام هذه الكفاءة النادرة والنزاهة الفريدة من نوعها » التى عهدنا عليها هذا القاضى لم يسعنى سوى أن أستعين بالنص ٨٤ من قانون الاجراءات الجنائية ، لاطلب تغيير هذا القاضى وقيام قاض آخر مكانه .

ووافقوا على طلب التغيير . وعينوا بدلا من القاضى بيرار قاضيا آخر هو مسيو كورمانتانى قاضى التحقيق بمحكمة الجزائر الجنائية .

ولكن القاضى بيرار لم ينس أن يؤدى واجبه على أحسن وجه قبل تسليم مهمته للقاضى الجديد كورمانتانى . لم ينس بيرار أن يحدد موعد ٧ يونيو ليتم فيه فحص جميلة فحصا طبيا شاملا . بل وتعيين الاطباء المختصين الذين سيقومون بهذه المهمة .

والاطباء المختصون هم : الدكتور سيرو والدكتور جودار والدكتور بوناقوس ، هؤلاء هم الذين وقع عليهم اختيار القاضى بيرار للكشف على قوى جميلة العقلية .

ومما يذكر ان النص ١٥٦ من قانون الاجراءات القانونية نص على أن يقوم القاضى باعلام ممثل الدفاع باختياره هذا ، قبل عملية تنفيذه حتى تسنح الفرصة للدفاع بابداء ما يراه من ملاحظات .

ولكن لم يصلنى فى باريس أية اشارة الى ذلك . وقد تمت عملية الكشف عقليا على جميلة دون علمى .

وقد حددت المهمة المكلف بها الاطباء الثلاثة

١ ـ تحديد طبيعة التشويه الموجود فى الناحية اليسرى من صـــدر جميلة .

٢ ـ التأكد مما اذا كانت جميلة قد عانت فعلا من وضع أســـلاك مكهربة على اطراف ثدييها وعلى ساقيها وعلى مؤخرة أردافها واجـزاء اخرى . وعما اذا كانت هناك حروق من آثار الكهربة فى تلك الاماكن .

٣ ـ مع تعيين ما قد يوجد على جسم جميلة من آثار الكى بالسجائر .

٣ ـ التاكد عما اذا كانت توجد على اى جزء من اجزاء جســـم الضحيـــة اى اثـــر من اثـــار التعـــذيب .

وقد قام الطبيبان جودار وبوناديفوس بالرد على هذه السلسلة من الاســئلة بالقـــرار المختصر التـــالى .

١ ـ جميلة بوباشا مصابة فى كثير من أجزاء جسمها بعلامات غامقـة اللون لا يستبعد أن تكون ناتجة عن لمس أطراف السجائر المشتعلة لجسمها أو أى صـــلب مشـــتعل الحـــرارة .

٢ ـ وهى مصابة بتشويه فى القاعدة الخارجية من ضلوعها فى ناحية اليســـــــــار . .

وهذه هى نتيجة الكشف الطبى على جميلة ، والغريب اننى لم احط علما به الا بعد صدورها بحوالى ٣ اسابيع . . وبمحض الصدفة .

ولكن الذى يهمنى هنا هو الاشارة الى الفرق الشاسع بين هـــذا التقرير الذى لايبتعد كثيرا عن الحقيقة وبين التقرير الذى سبق ان قدمه الدكتور ليفى لورى عند فحصه لجميلة فى ١٥ مارس السابق .

لقد سبق أن علمنا ان الدكتور ليفى هذا هو الذى كان قد كلف بأمر القاضى بيرار للكشف على جميلة عندما تمت محاكمتها حينئذ عـلى تهمـــة القـــاء القنبـــلة .

وأنكر أيضا أن جميلة قالت خلال هذا التحقيق انها لاقت تعـذيبا شديدا ، وأن أحد الضباط قام بالقائها على الارض وبتوجيه ضربـــات وحشية فوق صدرها بكعب حذائه الثقيل ، وأنها تطالب بتعيين طبيب مختص للكشف عليها .

وتم اختيار الدكتور ليفى للقيام بهذه المهمة

وقام الطبيب المذكور بالكشف على جميلة فى مدة لاتقل عن ٤ او ٥ دقـــــائق . .

وفى خلال عملية الكشف الصاروخية هذه كانت جميلة تحـــاول

توجيه الطبيب الى الاصابة الشديدة الواضحة فى جنبها الايسر والـى البقع والحروق والكدمات والجروح التى كانت شديدة الوضوح فى ذلك الحين على جسمها . وكان الطبيب لا يصنع شيئا أمام ذلك سوى أن يهز لهـا رأسـه قائلا فى هدوء وسـكون :

«حسنا . حسنا ، طبعا ليس هذا بالامر الخطير» .

ولم يسمع جميلة سوى أن تعيد ارتداء ملابسها دون ان تضيف كلمة واحدة .

وبعد الاربع دقائق التى قضاها الدكتور ليفى فى فحص اصابات جميلة المتعددة وجروحها وتشويهاتها وآثار الاعتداء الوحشى عليها بعد اربع دقائق تماما من القيام بمثل هذه المهمة قام الطبيب بكتابة تقرير عن حالة جميلة ويلاحظ ان تقريره لم يكن يزيد عن ١٢ أو ١٣ سطرا على اكثر تقدير وهاهو :

«فى يوم ١٥–٣–١٩٦٠ توجهت الى القيادة الخاصة بمحكمة الجزائر العسكرية للكشف على الآنسة جميلة بوباشا .

وهى فتاة فى الثانية والعشرين من عمرها يبلغ طولها حوالى ١٫٥٦ نحيلة القوام ، خفيفة البنان .

واخبرتنى انها عانت من عمليات تعذيب مروعة منذ حوالى شهر خلال استجواب سلطات البوليس لها .

وقد قمت باجراء الكشف عليها وهى مجردة تماما من الثياب . ولاحظت أن جسمها خال خلوا تاما من أى علامة لحروق أو جروح .

وكل ما يلاحظ عليها مجرد ألم طفيف تشعر به عند الضغط على الجهة اليسرى من جنبها .

ويلاحظ أيضا انها تعانى من اضطراب فى احوال العادة الشهرية بسبب ظواهر معينة فى بناء جهازها التناسلى .

ولكن بعد أن قدمت جميلة شكواها فى ١٤ يونية سنة ١٩٦٠ عن عمليات التعذيب التى عانتها وعندما قام الدكتور ليفى بالمثول امام المحكمة مرة ثانية ، لكى يدلى بشهادته ، طلب منه أن يدلى بنفس الكلام الذى أدلى به فى جلسة التحقيق الاولى التى تمت فى ١٥ مارس الماضى .

وجاء رده مفككا مضطربا متناقضا .

ترى كيف يفسر كل ذلك ؟

فى الواقع ان كل عبء هذه المتناقضات الفاضحة يقع آنذا على

كاهل القاضي الجديد كورمانتاني ، وكان عليه اذن ان يبذل قصارى جهده لكي يخمد انفاس هذه القضية التى اخذ صداها يزداد انتشارا .

والحق يقال ان سيادة القاضي بدأ يبذل كل مافى وسعه لو أد معالم الفضيحة التى كانت تتشعب وتتضخم .

وبالرغم من التأكيدات المتعددة التى حصلت عليها وبالرغم من كل مابذلته اللجنة وماقامت به « لجنة المعونة» من اجراءات لكيلا تستجوب جميلة دون حضورى بالرغم من ذلك قام القاضي كورمانتانى باستجواب جميلة اثناء غيابى فى باريس .

وأول مرة قام فيها باستجوابها كانت بتاريخ ٧ يونية . وفيها طالبها بتوضيح أهم ماجاء فى شكواها التى قدمتها فى ٧١ مايو الماضى . وقد قامت جميلة بالرد علىذلك فى دقة وصواب .

وفى باريس بتاريخ ١٢ يولية عقدت لجنة جميلة بوباشا اجتماعا برئاسة سيمون دى بوفوار .

وفى نهاية الاجتماع تقرر احاطة الرأى العام علما بانه بالرغم من كافة الاجراءات التى اتخذت وبالرغم من الضمانات المتعددة التى قدمتها كثير من الجهاد المختصة العليا فان موضوع جميلة مازال يجد امامه اكثر من عائق . ولم يتقدم فى سبيل الحل خطوة وحدة .

فأصدرت اللجنة تقريرها التالى :

١ - بالرغم من المطالبة بنقل جميلة الى فرنسا للنظر فيما قدمته من شكوى ولعرضها على اخصائيين فرنسيين فلم يتم ذلك بعد .

٢ - كما أن محكمة الجزائر تمضى فى اتخاذ كل ماتراه من اجراءات قانونية فى نظر هذه القضية دون ابداء أى اهتمام بمعارضة ممثلة الدفاع عليها .

وعندما رأى القاضي كورمانتانى أن كافة الوسائل التى اتبعها لعرقلة سفر جميلة الى فرنسا قد نفذت ، لم يسعه سوى ان يلجأ الى أحط هذه الحيل .

أعلن انه لايعارض مطلقاً فى نقل جميلة الى فرنسا، ولكن بشرط أن تقوم هى بالمصاريف لاتمام الاجراءات اللازمة وبالفعل اعلن انها ملزمة بدفع مبلغ لايقل عن ١٠٠٠٠٠ فرنك ان هى أصرت على تنفيذ فكرة سفرها الى فرنسا للتحقيق فى شكواها ولاجراء كشف طبى عام عليها بواسطة كبار الاخصائيين الفرنسيين .

وليت الامر قد توقف عند هذا الحد لعرقلة سير قضية جميلة ، فبعد

فترة قصيرة قام القاضى كورمانتى برفع هذه القيمة حتى بلغه ١٢٠،٠٠٠ فرنك وليس ١٠٠،٠٠٠ فقط .

وهنا وأمام مثل هذه الحيل الفائقة الانحطاط لم يسعنى الا أن ارسل خطابا لوزير العدل استنكر فيه ماوصلت اليه حالة القضاء من مستوى مؤسف .. وان عملية كشف القناع عن الجلادين السـفاحين تتطلب ان يكون المرء ذا ثروة طائلة .

واخذت الصحف تنشر انباء الفضيحة القضائية الفريدة من نوعها رئيس محكمة الجزائر الفرنسية يطلب «ثمن نقل جميلة بوباشا الى فرنسا» وجميلة ممنوعة من السفر حتى تدفع الثمن .

وقامت لجنة جميلة بجمع هذا الثمن الباهظ ودفعته لهيئة القضاء الفرنسية فى الجزائر حتى تقبل تخليص جميلة من براثنها .

واخذت أخيرا جميلة مكانها فى احدى الطائرات «داكوتا» المتوجهة الى باريس وكان خطابها الى قبل وصولها الى باريس رائعا فى بساطته :
«عزيزتى جيزيل .. انى قادمة . ولا أعرف كيف سيكون الجـــو فى فرنسا» .

ترى أى «جو» كانت تشير اليه جميلة ؟

جميلة فى سجن «فرزن»

ذهبت لشراء باقة من الورد وتوجهت بها الى باب سجن فرزن الذى وصلت اليه جميلة أمس فى تمام الساعة ١٤ مساء

وبعد مرورى بعدد من اجراءات الدخول . وصلت الى الزنزانة التى نزلت بها جميلة منذ عدة ساعات .

واثر رؤيتى نهضت جميلة من مكانها . ووقعت بين ذراعى تحتضننى وتقبلنى فى شوق وحرارة .

ووقفت السجانة غير بعيد منا تنظر الينا نظرات مشوبة بالتعجب والدهشة فلعلها لم تشهد من قبل مثل هذه الحرارة فى لقاء محامية بموكلتها .

كنا نريد ان نتحدث معا فى عدة مواضيع .. ولكن خيل لى ان جميلة كانت شبه مأخوذة . فها هو حلم من احلامها قد تحقق .. ها هى فى باريس .. هذه المدينة التى تنظر اليها بعين الاكبار . والتى تعقد عليها كل آمالها فى قضيتها هذه ضد جلاديها الطغاة . والتى قرات عنها الكثير فى كتب دراستها .

اما أنا .. فقد أخذت بدورى بسحر جميلة . ولم تكن نظرات جميلة لباريس التى تشع بالاعجاب لتقل قدرا بسبب وجودها فى السجن .. وأنها تشرف عليها من خلال جدرانه .

وفجأة اندفعت جميلة فى حيوية وانطلاق كانطلاق الاطفال تقول لى : — هل تعرفين كم هى رائعة الطائرة .. فهذه هى اول مرة اسافر فيها بالطائرة .. لقد رايت جزءا صغير من برج «ايفل» وانا انظر من نافذة الطائرة اثناء تحليقها فوق باريس . كم كان رائعا ، ولكن فى أثناء قدومى من المطار الى السجن بالسيارة لم استطع رؤية اى شىء عى الاطلاق كانت السيارة مقفلة بصورة كاملة .

ثم اضافت قائلة فى أسف ظاهر :

— « هل تعتقدين ياجيزيل اننى ساستطيع ان اتنزه معك فى انحاء باريس فى وقت قريب ؟ .. هيه .. جيزيل ؟

ثم انطلقت تقول فى فرح غامر وقد تلألأت عيناها الجميلتان الحوراوان ببريق ساحر : .

واخيرا .. اخيرا سأستطيع رؤيتها .. سيمون دى بوفوار ، بربك ياجيزيل اخبريها اننى اود من كل قلبى أن اتعرف عليها .

وبدأت تداعب باقة الزهور التى أحضرتها معى وهى تقول :

ـ هذه أول زهور تقع عليها عيناى منذ .. منذ أن غادرت بيتنا فى دير ابراهيم .. أى منذ.. واخذت تعد الشهور على أصابعها وتتمتم ساهمة .

ـ سجن البيار فى فبراير . سجن حسين داى فى فبراير أيضا ومرة اخرى فى سجن البيار فى شهر مارس .. ثم سجن باربوروس فى ١٥ منه ....»

ثم بدأت تحدثنى عن النصر الذى استطعنا أن نحرزه بفضل مجهودات اللجنة وبفضل كل من انضموا اليها بأصواتهم وتعضيدهم ومساندتهم .

وقلت لجميلة انه من المنتظر ان يقوم خمسة أطباء من باريس بعملية الكشف عليها فى القريب العاجل وعلى وجه التحديد فى ١٨ يولية . أى التاريخ الذى حدده القاضى كورمانتانى فى الجزائر . فقاطعتنى جميلة منفعلة .. :

ـ أوه .. ياله من مخلوق ! تصورى اننى كنت كلما بدأت اقول له اننى لاقيت عمليات تعذيب قاسية ، فانه يحدجنى بنظرات نارية شريرة ويقول لى «احترسى .. انك تقولين اشياء خطيرة .. خطيرة جدا .. ولذا احترسى .. احترسى جيدا» . وكنت اجيبه اننى اقدر جيدا خطورة القضية بأكملها ، ولكنى لا اقول سوى الحق .

ثم نهضت جميلة من مكانها واخذت تسير فى حركات صارمة مهددة مقلدة امامى القاضى كورمانتانى وهو يرد عليها بقوله :

والآن .. هل أنت مصرة ؟ .. حذار .. ثم حذار ، هيه ، هل أنت مصرة ؟ ثم اندفعت تتساءل فى انفعال :

ـ ماذا تعتقدين انه كان يعنى بكلامه هذا ؟ ماذا كان يريد على وجه الدقة ؟ .. أن أسحب شكواى ؟

فأجبتها واثقة:

ـ «مستحيل .. لا بد ان تعرضى هذه الشكوى هنا على قضاء باريس»

وقلت لها :

ان الاطباء الخمسة الذين سيقومون بمهمة الكشف عليك هم البروفسور لاتيوجول والبروفسور فانك برينتانو وأستاذ طب النساء دوبيرارت وأستاذ علم الامراض الجلدية كيرستيانسى والدكتورة الاخصائية فى أمراض النساء والامراض النفسية هيلين ميشيل ولفروم .

هذا وقد وجهت لكل من هؤلاء الاخصائيين الكبار مذكرة مختصرة ابين فيها ظروف الحالة التى مرت بها جميلة واللحظات الرهيبة التى عاشتها فى سجون البيار وسجن داى . كما أوضحت لهم أهم الملاحظات التى توصل اليها كل من الاطباء الثلاثة الذين قاموا أخيرا بتوقيع الكشف على موكلتى فى سجن الجزائر وهم : الدكتور جودار والدكتور سيروت والدكتور يوناتوس . والنتيجة التى توصل اليها الاطباء الثلاثة بعد فحصهم لجميلة فى الجزائر هى :

١ ـ أنها مصابة فى معظم اجزاء جسمها بعدد كبير من الاثار والتشويهات الجلدية التى لا بد أن تكون ناتجة عن كيها بالنار .

٢ ـ انها مصابة بتشويه فى الناحية اليسرى من صدرها .

***

ثم بينت فى مذكرتى كافة الاضافات المذكورة بالطريقة المفصلة الآتية:

النقطة الاولى :

ثبت ثبوتا قاطعا وجود آثار حروق على اجزاء عديدة من جسم جميلة . وستساعد التحليلات التى ستجرى على عينة من بشرتها لاثبات مدى قوة هذه الحروق ودرجة خطورتها واتساع مساحتها بالنسبة بالنسبة للاجزاء الاخرى من الجسم التى بدون اصابة .

كما ثبت ايضا ان جميلة مصابة فى أعلى ساقها اليمنى وفوق ثدييها بآثار حروق أكثر اتساعا وعمقا من الآثار الموجودة فى بقية أجزاء الجسم . والمرجو عند اثبات وجود الاثار التكرم بتحديد سبب اختلاف هذه الآثار عن آثار الحروق الاخرى المنتشرة فى جسم جميلة . فانا لا اعتقد مطلقا أن هذه الحروق الموجودة على الثديين وعلى الساق اليمنى كغيرها من الحروق الاخرى عن الكى بالسجائر .. كما اثبت ذلك الاطباء جودار وسيروت وبمونافوس فى قرارهم .

النقطة الثانية :

تشكو جميلة دائما من آلام مبرحة فى الجهة اليسرى من صدرها .. والمكان الذى تشكو منه يبدو واضح التورم .

ويلاحظ ان تقرير الاطباء الثلاثة لم يحدد مدى خطورة هذه الحالة ولا سببها

وتؤكد موكلتى انها اصيبت بهذه الاصابة فى الجهة اليسرى من

صدرها بسبب الضربات القوية التى تلقتها فى هذا المكان من قبضات اليد وكعوب الاحذية الثقيلة .

فهل سيساعد الكشف فى هذه المرة على تاكيد اقوال جميلة ؟

وبعد أن قرات على جميلة هذه المذكرة التى سأعرضها على الاخصائيين الخمسة غادرتها لاعود اليها فى صباح اليوم التالى .

وكنت احضر اليها كل يوم وأتناول معها طعام الافطار المكون من سندويتشات دجاج وقهوة ساخنة أحضرها فى حقيبتى . ولكن جميلة كانت تبدو ساهمة حزينة . فالوقت يمر ولا تبدو اية معالم لرغبتهم فى اجراء الكشف عليها .

وخاصة ان الوقت يعتبر ذا قيمة عظيمة بالنسبة للاصابات الموجودة فى جسم جميلة . فان الوقت يعمل على محو آثارها شيئا فشيئا .

وبدات اقوم باجراءات متعددة للتعجيل بهذا الكشف

اما الصعوبات والعراقيل القانونية التى كانت تقف عقبة فى اجراء هذا الكشف فكانت ناتجة طبعا عن هيئة القضاء فى الجزائر .

وفى النهاية وبعد مجهودات طائلة من اللجنة للتعجيل باجراء الكشف

ومن هيئة القضاء بالجزائر لوضع العراقيل فى طريقة لتأخيره أو عدم اتمامه ، اخيرا .. قرر المسيو بروسيت قاضى محكمة السين أن يقوم الاطباء المتخصصون باجراء كشفهم على جميلة ء

***

وفى أحد الايام اتصلت تليفونيا بالطبيبة هيلين ميشيل ولفورم الاطباء المتخصصون باجراء كشفهم على جميلة .

كانت الطبيبة قد أمضت عدة ساعات فى التحادث مع جميلة بزنزانتها فى سجن فرزن . قالت لى الطبيبة :
ـ هذه الفتاة غير قادرة على أى كذب أو خداع ..

وعندما رددت عليها بقولى اننى كنت على يقين تام بصدق جميلة فى كل ما قالته أجابتنى الدكتورة هيلين ميشيل ونفورم مسرعة :

ـ لاتحاولى اقناعى بشىء انا شديدة الاقتناع به .. اننى واثقة ١٠٠٪ بأنها عانت من كل ما ذكرته من أنواع التعذيب .. ليس عندى أى شك فى ذلك مطلقا ..
ثم اضافت ونبرات صوتها تشع صدقا وذكاء :
ـ « خسارة » .. انها فتاة رائعة .. رائعة فى طهارتها .. رائعة فى صدقها ونزاهتها :

ومضـــــت تقـــول:

ولكنى أؤكد لك انك وضعتنا جميعا بقبضتيك هاتين فى مأزق صعب للغاية قد لا نستطيع الخروج منه ٠٠ يا لها من مشكلة٠٠ واى مشكله حقا

أما المشكلة التى كانت الدكتورة تود الاشارة اليها فقـــد علمت بها اخيرا .. كان الاطباء الخمسة الموكلون بالكشف على جميلة يجـــدون صعوبة قصـــوى فى الاتفاق فيما بينهم اتفاقا كاملا .. لتدوين قرارهم الجماعى عن حالتهـــــا .

لمـــــاذا ؟ ٠٠٠

لأنهم كانوا يقدرون مدى الضجه الهائلة ورد الفعل الشـــديد الذى قد يسببه اعلان الحقائق الضخمة فى تقريرهم ٠٠ واجماعهم عليها ٠

كان أحدهم يريد توضيح الحقيقة بكامل حذافيرها ، ويوضحها عارية بشعة كما شاهدها على جسم جميلة ، فيرد عليه واحد منهم :

ـ لعلك تريد أن تقع صريعا برصاص بعض المتطرفين ٠

والنتيجـــة ؟..

تعارض ٠ تعارض شديد ، تلقاه القاضى بروسيت بتاريخ ١٥ اكتوبر فى هيئة تقرير من الاطباء الخمسة عن حالة جميلة بوباشا ٠

والجزء الاول من هذا التقرير المتناقض يبين حالتها الصحيـه العامة : وهى مرضـــية .

ثم تقرير عن حالة جلدها : يثبت انها مصابة على كتفيها وعلى ساقيها ببقع غامقة اللون ٠ ومن الغريب حقا ان الدكتور روبيرار (أحد الاطبـاء الخمسة) قد قرر ان هذه البقع الجلدية غير ناتجة عن حروق بالكهرباء أو بنار السجائر ٠٠

وقد ذكرت أننى طالبت كتابيا الدكتور روبيرار باجراء تحليل عـلى هذه البقع لمعرفة سببها ولكنه لم يفعل ٠٠ كما انه لم يذكر سبب وجود هذه البقع التى أشار اليها ٠

أما الجزء الثالث من التقرير فيؤكد وجود اصابة متورمة فى الناحية اليسرى من صـــدر جميلة ، ولـكن الطبيب كريستيانس ذكر حرفيا فى التقرير : « ولا يستبعد ان تكون هذه الاصابة ناتجة عن ضربات عنيفة ٠ كمـــا لايستبعد ان تكون عاهة طبيعية (١) .

أما الجزء الاخير من التقرير فقد قامت الطبيبة هيلين ولفورم بتدوينه، وفيه أشارت الى حالة جميلة النفسية قائلة :

(١) لم تكن جميلة باى عاهة فى صـــدرها قبل أن يقبض عليها وقد اثبت ذلك فى محضر تحقيق قضية محاكمتها بقلم قاضى محكمة « كاوان » بباريس .

« تصرفاتها وطريقة تعبيرها تدل على حسن تربيتها وسـمو صفاتها ويلاحظ على معظم اجاباتها البساطة المحببة والاستعانة بجمل طبيعية غير منمقة • كما ان جميلة تميل الى التحفظ والتأدب فى تصرفها • وانهامتدينة الى أقصى درجـــة ممكنـــة .

أما من الناحية العصبية فحالتها غير مرضية فانها تعانى من الشعور الدائم بالحزن والألم ، كما أنها تخضع لكثير من المعتقدات والافكارخضوع المأخوذ المسحور ••

فمثلا صوت رنين مفاتيح الابواب يقترن لديها بالشعور بالتعذيب الذى لاقته خلال استجوابها • كما انها تقوم عند مطالعتها الصحف بالتنقيب فى نهم واهتمام حار عن اسم كل مواطن جزائرى يتم القبض عليه أو اعدامه •

فى يوم ٢٢ يونيه غادرت جميلة سجن قرزن الى سجن «ليزيو».

وقضت جميلة فى سجن « ليزيو » هذا أسوأ أيام حياتها . كانت منعزلة منفردة انفرادا تاما .. ولا يقدم لها سوى أسوأ أنواع الاغذية. ولا تتمتع بأى امتياز يتمتع به المسجون السياسى مثل التنزه فى حديقة السجن أو قراءة الكتب ومطالعة الجرائد والحصول على ما تبتغيه من كتب

وكان القاضى مسيو شوسيرى ـ لابريه قد حدد يوم ٢٧ يونية لاستجواب افراد عائلة بوباشا اى والدة جميلة ووالدها وزوج اختها.

وكان القاضى يعتبرهم كشهود مهمين فى قضية تحقيق الشكوى لان أغلبيتهم قد مروا بعمليات تعذيب سجن البيار .

وأما عن عبد العزيز بوباشا والد جميلة وعبد الحميد زوج شقيقتها نفيسة فقد وقعا أيضا تحت طائلة سلسلة منكرة من التعذيب والارهاب ولذا قاما كذلك بطلب التحقيق فى شكواهما عما عانياه من تعذيب.وقدما شكواهما الى محكمة الجزائر ولم يكن من المستغرب عندئذ الا يسير التحقيق سيرا حثيثا ، ومثلما حدث فى قضيه جميلة تقرر نقل قضية عبد العزيز بوباشا وعبد الحميد من أيدى رجال القضاء بالجزائر الى هيئة القضاء المكلفة بنظر قضية جميلة بباريس .

ووجد مسيو شبوسيرى لابريه نفسه مكلفابالتحقيق فىالقضايا الثلاث كقضية واحدة بشرط أن ينفرد ملف كل منها عن الآخر . وذلك للتطابق التام فى أحوال كل منها وفى الظروف والاماكن وعمليات التعذيب ... والاشخاص الذين قاموا بالتعذيب ..

وكان من المقرر أن يتم نظر القضيه الثلاثية المتداخلة بمحكمة « كايان » .

وفى ٢٦ يونيو وصلت الى مدينة كايان فى صبيحة يوم مطير رطب وفى خلال الفترة السابقةكانت عائلة بوباشا بأكملها قد وصلت الىباريس وعندما تقابلت مع نفيسة فى مدينة كايان بالفندقالصغير الذىكانت تقيم فيه هى ووالدتها قالت لى انها تود رؤية زوجها عبد الحميد واستفسرت عما اذا كان من المستطاع السماح لها هى ووالدتها بمقابلة جميلة فىسجن « ليزيو » وهتفت بى والدة جميلة :

« لم أعد أستطيع .. جيزيل .. أرجوك أود رؤيتها لقد أوحشتنى كثيرا .. عاما كاملا لا أرى خلاله حبيبتى ؟؟ »

وبعد أن تركت جميلة نفيسة ووالدتها توجهت الى مقر قاضى التحقيق المسيو شوميرى لابريه . لاقدم له نفسى .

وحالما دخلت مكتبه قام سيادته لتحيتى فى تأدب جم . وقد لاحظت خلال حديثى الاول مع المسيو شوميرى انه يؤمن ايمانا راسخا بقدسية مهنته .

لقـد قبل مسيو شوسيرى التكفل بنظر قضية بوباشا المتشعبة قبل ذلك فى ثقة وايمان واعتداد كامل .. دون أن يولى أى اهتمـام لما يروق « السلطات العسكرية المختصة » أو يتفق مع التيـار السياسى السائد حيال الجزائريين . لم يكن مسيو شوسيرى ليساوره أدنى قلق من خطورة المهمة التى يضطلع بعبئها . لم يهتم بالرغم من ثقته أن المتهمين فى قضية بوباشا حفنة من الضباط الفرنسيين — وأن المجنى عليهم بعض أعضاء جبهة التحرير الوطنى الجزائرية . لم يكن كل ذلك ليشوب مفاهيمه أو معتقداته المهنيـة ..

ولكن كل ما كان يعرف ويضع نصب عينيه دون الاهتمام بأى شيء آخر هو : أنه سيقوم بالتحقيق فى هذه القضية تحقيقا نظيفا نزيها يتيح له أن يكشف الستر عن الجناة ، والاشارة بأصبع الاتهام نحو المسئولين الفعليين . كان يعتقد اعتقادا جازما ويؤمن ايمانا لا يتزعزع بأنه مكلف بالقيام بهذا العمل كما يعمل أى اخصائى آخر للحصول على ما يبتغيه من نتائج . وأما هو فكان اخصائيا فى البحث عن العدالة والصدق بأجل وأكمل معانيها .

لقد امضى مسيو شوسيرى أياما عديدة فى دراسة ملفات القضية وبحثها بحثا مستفيضا وافيا . وبعد ذلك قام بوضع ملاحظاته عنهـا فى هيئة جدول كبير مكون من عدة أقسام طولية . ولون كل قسم من هـذه الاقسـام بلون يختلف عن الاخر تبعا لكل شاهد من الشهود ولم ينس أن يضع الاسئلة اللازم توجيهها مع توقع ما يمكن أن يكون من متناقضات فى أقوال بعض الشهود . وعين كثيرا من النقط التى تستلزم توضيحا خاصا

وقام بعد ذلك بالصاق كافة هذه العناصر مع محتويات جدول القضية بحيث تكون معدة أثناء السؤال المناسب والشاهد المنـاسب . واللحظة المناسبة .

لقد تعمق فى بحثه وتمحيصه ودراسته ولم يترك كبيرة ولا صغيرة فى القضية الا وأشبعها تحليلا ودراسة . كان يعمل فى جـد واهتمام نادر المثال .دون أدنى خوف أو رهبة أو تردد لأن غايته الوحيدة التى كـان يعمل للوصول اليها لم تكن سـوى .. الحقيقة .. الحقيقـة ولا شيء غـير الحقيقـة .

ولم يكن قد قابل جميلة بعد . ولذا فقد قال لى أثناء زيارتى له:

وأعتقد انها ذكرت الحقيقة فى موضوع التعذيب هذا .. ومع ذلك فأنا أريدها أن تجيب على كل ما أوجهه اليها من أسئلة . أريد ذلك حتى لو بدا لها أو لك أن هذا الامر غير متوقع .. اننى أعرف ما أود الوصول اليـه ...

فاخذت مسيو شوسيرى لابريه قائلة ان جميلة ستقوم بالاجـابة على كل مايوجهه اليها من اسئلة . فهى لاتعرف الكذب وستساعـدنا. ولكنه أضاف فى شيء من التردد :

« أعتقد انها على شيء من الـ ... لا أريد أن أقول انها متبجحة ... جريئة .. ولكن .. »

وهنا رأيت أن أوضح لسيادته حقيقة جميلة فقلت له : انها ليست وقحة أو متبجحة .. أبدا ولكنها مواطنة مجاهدة تؤمن بقضية بلدها وبحقه المقدس في التحرر والاستقلال . ولذا فهي ترى انها غير ملزمه باستعطاف القضاء الفرنسى عندما تطلب منـه مقاضاة من اوقعوا بها بمثل هـذا العذاب لا لذنب جنتـه الا انهـا مجاهـدة من أجـل وطنهـا وتـؤمن بضرورة اسـتقلاله وتحـرره .

وهي تعتقد انها بمطالبتها بذلك لا تطالب الا بحقوقها كمواطنة حرة . ولا شك انها ستجيب فى ثبات وقوة قائلة انها تناضـل وتكافح من اجل الجزائر لو وجه لها سؤال عن الهدف الذى ترمى اليه من وراء كفاحهـا الوطنى .

وهذا شأنها هى ، وأنا لا استطيع أن الومها على ذلك .. ولكن الذى يهمنى أنا وأريد التحقيق فيه هو موضوع التعذيب ..

وفى اليوم التالى عقد مسيو شوسيرى أولى جلسـات التحقيق فى الشكوى المقدمة من جميلة بوباشا واستمر استجوابه لجميلة طيـلة هذه الجلسـة ابتداء من الساعة التاسعة صباحا حتى الساعة ٢. مساء

وخلال فتـرة الصـباح باكملها كانت الاسـتجواباب تقـوم خصـة على ما حدث لجميـلة فى سـجن البيار .

كان القاضى يضع أمامه جدوله المنظم . وينظر فيه بين لحظة وأخرى ليلهب « المجنى عليها » الواقفة أمامه بسيل لا يتوقف من الاسئلة المتتابعة

كان القاضى شوسير يهمه هدم التحقيق القديم الفاسد وازالته عن آخره ليقيم بناء آخر جديدا من صنعه هو ـ لا أثر فيه للشك والضـلال والريبة ! ...

وفى فترة بعد الظهر بدأ مناقشة ما كان يدور فى سجن حسين داى حيث كان يتم التعذيب باجلى وأبشع معانيه . ليس مجرد صـفعات رنانة على الوجه أو ضربات قوية على الرأس . لا ..

فى سجن حسين داى كان التعذيب يتم بواسطة الاسلاك الكهربائيـة والاغراق فى الماء .. و ..

وفجأة وجدت جميلة تتوقف تماما عن الكلام والآلة الكاتبة الصاخبة الصوت التى كانت «تصيح» تحت لمسات كاتب الجلسة السريعة توقفت هى الاخرى .. والقاضى نفسه توقف عن الانصات لما كانت تقوله جميلة وشحب لون جميلة وأصبح أقرب الى البياض فى شحوبه واعتقدت أنا انها تعانى من بعض الألم فى جسمها .

كان القاضى قد غادر مكانه بضعة لحظات وأحضر على مكتبـه آلة

عجيبة ذات شكل غريب • انها تميل الى الاستدارة • وهي ضئيلة الحجم - ويتصل بها حلقة دائرية يتشعب منها عدد كبير من الاسلاك •

كان القاضي يرشق جميلة بنظرات ثابتة • وجميلة تنظر الى الآلة نظرات مأخوذة حادة •• ولون بشرتها يزداد شحوبا فوق شحوبه عندما ارتفع صوت القاضي يقول لها بعد صمته الطويل وهو ما زال يحـــدق في وجهها :

ــ وهذا ؟•• هل تعرفين ما هو ؟

ولم أعد أفهم ما يدور أمامي !•• ما الذي يريده القاضي بالضبط •• وهذا •• ما هو حقا ؟

فلم أكن قد شاهدت هذا الشيء من قبل •

ولم ترد جميلة • بدت عاجزة تماما عن النطق • وكل ما كانت تفعله هو الشخوص كالمذهولة نحو مكتب القاضي •• ونحو « الشيء » الموضوع فوق مكتب القاضي وتعالت صيحة القاضي مرة ثانية :

« حسنا قولي لنا -؟•• هل رأيت « هذا » من قبل ؟ وسكت ومضت جميلة في ذهولها وصمتها العميق •• ومضى القـــاضي في تكرير سؤاله عليها • وفجأة اندفعت جميلة واقفة وصاحت في صوت مرتفع « انها هي •• هي الآلة التي عذبوني بها •• انها هي بأسلاكها المكهربة ! » •

وبدأ مسيو شوسيري لابريه يدير الآلة فأوصلها بالتيار الكهربائي وطلب مني أن أجرب سلكين من ســـلوكها العــــديدة المدلاة منها كأذرع الاخطبــــوط طلب مني أن أضـــع الســـلكين على يدي فرفضـــت في استنكار •

وأبدى كاتب الجلسة تطوعه لاجراء التجربه وأخذت يد القـــاضي تدير العجلة ببطء بعد أن وضع طرف الاسلاك على يديه وهو يوجه سؤاله لجميلة قائلا : هكذا يا جميلة أحيانا ببطء •• وأحيانا بسرعة كبيرة •

وأخذ كاتب الجلسة يبدي تألمه ويرتعش بشدة عنـــدما زادت سرعة العجـــــلة •

أما جميلة فكانت تنظر للآلة كالمأخوذة وتتمتم بطريقة آلية :
« نعم ••• نعم هكذا » ••

وأنهى مسيو شوسيري لابريه تجربته وقد وضحت علائم الرضـــاء والارتياح على ملامحه •

كان يريد من وراء ذلك الوصول الى أعمق جذور الحقيقة والصـــدق في نفس جميلة • ووجد أن طريقته هذه هي التي تمكنه من ذلك ففضلها عن مجرد الاستجواب العادي •

وكان التعبير الذي وضح على سمات جميلة وهي ترى الآلة ، ورد الفعل الذي طرأ عليها حينئذ بمثابة الدليل الراسخ على صدق أقوالها •

ووجه القاضى كلامه لجميلة قائلا :

هدئى من روعك .. ولنمض فيما كنا بصدده .. فى سجن حسين داى .. ومضت جميلة تتم حديثها السابق . وتعدد وقائع التعذيب المتتابعة • أولا الصفعات والركلات والشتائم النابيه واضرب القاسى — ثم التعذيب بالكهرباء •• ثم عملية الاغراق فى مياه البانيو •••

وهنا قاطع القاضى قائلا فى حدة :

كيف تتم هذه العملية الاخيرة . سنرى ذلك .. وبدات جميلة تفسر ذلك ولم يكن من السهل وصف ذلك الوضع وكيف أوثقوا ساقيها وقدميها ثم طرحوها على الارض ومرروا عصا خشبية غليظة بشكل افقى بين رسغيها وقدميها المربوطتين أى بنفس الطريقة التى يعلق بها الصيادون ما يقتنصونه من خنازير برية أو غزلان !.. ويقوم اثنان من الضباط القائمين على تعذيبها بحمل العصا من طرفيها .. وينقلون جميلة بهذا الوضع الى البانيو الموجود فى وسط الحجرة والمملوء لحافته بالمياه المثلجة . ويقومون بتركيز طرفى العصا الطويلة على طرفى البانيو بحيث تكون جميلة غارقة فى المياه باكملها .

وهنا سألها القاضى فى شىء من الانفعال « هل تجيدين الرسم ؟ » • لا يكفى الكلام مطلقا هل تستطيعين أن ترسمى بالضبط الوضع الذى كنت عليه .

ولم تكن تجيد الرسم •••

وهنا اتصل القاضى تليفونيا ببعض مصورى التحقيق القضائى الذين حضروا فى أقل من ١٠ دقائق حاملين معهم آلاتهم الفوتوغرافية •

وتوجهت أنا الى مرحاض جانبى وأحضرت منه مكنسه وفوطتين • وقمت بمساعدة كاتبة الجلسة بشد وثاق أحد المصورين (النحيفى القوام طبعا) وعلقناه بنفس الطريقة التى ذكرتها جميلة . مع استبدال البانيو بمقعدين متباعدين • وفى تلك الاثناء كان المصور الآخر منهمكا فى التقاط عدة صور لزميله وهو فى هذا الوضع • واختار له أكثر من زاويه مناسبة لتصويره منها .

ولم يكن القاضى قد تحرك من مكانه وكذلك كانت جميلة • التى أخذت تشرح سير العملية . وبلمسة بسيطة على جبهتى كانوا يغرقوننى فى الماء فأشعر بالاختناق والغرق فيقولون لى ساخرين •• عندما تشعرين بالرغبة فى الكلام ارفعى أصبعك الصغير ••• ولم أشعر برغبة فى الكلام ولكنى شعرت بنفسى أختنق وأغوص فى الماء •• وفى المساء وجدت نفسى مكومة فى ركن من زنزانتى وأنا عارية تماما من الثياب وبجوارى كومة ملابسى ••

كانت جميلة تتكلم فى هدوء . ولكن هدوءها هذا كان يشع منه شىء ما تقشعر له الابدان .. كانت تتكلم وهى شاخصة محملقة فى .. فى لاشىء ..

أما القاضي فقد كانت علامات السرور البالغ تبدو واضحة على أساريره المنبسطة بسبب ما أصابه من نجاح في الحصول على ما كان يرغبه من نتائج بطريقة عملية فعالة ولذا لم يحاول أبدا أن يقاطع جميلة أثناء حديثها الهادىء المخيف .. كان يتعمق في النظر اليها ويحدق فيها بعيون ثابتة وهي ماضية في حديثها .. ثم رفعت الجلسة لتعقد في اليوم التالي في تمام الساعة التاسعة صباحا لسماع اقوال الشهود والمقارنة بينها .

حضرت الى قاعة المحكمة في تمام الساعة الثامنة والنصف . كانت عائلة بوباشا باكملها حاضرة هذا اليوم .

وقد حدث ما كنت أتوقعه وما كنت شديدة الثقة به فعندما قام القاضي باستجواب جميلة بوباشا ثم أبيها ثم امها ثم اختها ثم زوج اختها لم يلحظ اى تناقض بين اقوالهم او أى كذب طفيف في اقوال اى واحد منهم .

في ٢٩ يونيو قام القاضي شوسيرى لابريه قاضي قضاة محكمة كابان بتوجيه مذكرة للسلطات القضائية بالجزائر تحتوى على عدد من الاسئلة الواضحة .. التي تحتاج الى ردود واضحة !

وقد أعد هذه المذكرة اعدادا وافيا ممتازا . وركز فيها الاهتمام على ما يطلب من معلومات معينة .

كانت تحتوى على أدق النقط التي تحتاج ايضاحا : أسماء الضباط .. ورتبهم وصورهم وبعض التواريخ .. والاحداث .

وبذا استطاع هذا القاضي القدير أن يحدد في دقة متناهية أسماء الجنود والضباط ، وأعضاء البوليس القضائي الذين ساهموا في مأساة تعذيب عائلة جميلة بوباشا . بل استطاع أن يحدد في مهارة وحذق بالغ مدى درجات مساهمتهم في أعمال التعذيب والوقت الذى قاموا فيه بعملهم

واستطاع هذا الاخصائي في التنقيب عن الحقيقة أن يضع كل واحد من هذه المخلوقات في مكانها المناسب كما يفعل أى اخصائي في علم الحشرات فيضع كلا منها في موضعه المحدد ويمنحه وظيفته المعينة في اطار حقل التجربة التي يقوم بها ..

وكانت النتائج التي يصل اليها قاطعة باترة .

ولكن بقى عليه أن يقوم بعملية مضاهاة شخصية المتهمين ، بما يلزم ذلك من صور فوتوغرافية وتقريرات متعددة .

وطبيعي أن تقوم السلطات القضائيه بالجزائر بوضع كافة الصعوبات الممكنة لكى لا يحصل قاضي محكمة كابان على ما يطلبه من معلومات بخصوص هؤلاء الجنود والضباط وقد فعلت كل ما يمكنها في سبيل ذلك .. ولكن ..

... كان من المحدد معاودة اجراء التحقيقات فى تاريخ ٧ و ٨ نوفمبر بمدينة كابان ٠

وكانت جميلة ابتداء من هذا الشهر قد بدأت هى وعـــدد كبير من المواطنين والمواطنات الجزائريات ، بدأت معهم تمتنع امتناعا تاما عن تناول أى طعام ٠

وعندما دخلت عليها زنزانتها بسجن ليزيو لاحظت عليها الاعيـــاء والضعف الشديد الذى كانت تعانيه نتيجة لامتناعها عن تناول أى غـذاء وكانت راقدة لا تقوى على الوقوف على قدميها ٠

كانت حجرتها فى حالة يرثى لها من القذارة والاهمال ٠٠ شـديدة البرودة خالية من قطرة ماء أو جهاز تدفئة يخفف من حدةالصقيع القارس فى مثل هذه الآونة من العام ٠ وأخبرتنى جميلة انها لا تتلقى أية عناية أو رعاية وهى راقدة ٠ وخاصة انها بدأت تعانى فى ذلك الحين من اضطراب فى قلبها ٠

وكنت قد أحضرت معى والدتها وشقيقتها لكى يتمكنا من رؤيتها ٠ ولما رأت مدام بوباشا ابنتها فى هذه الحال المؤسفه من الضعف والهزال اندفعت نحوها مادة ذراعيها وانهالت عليها تقبلها فى حـرارة وشـوق والدموع تنهمر من عينيها ٠ وهنا اقتربت الحارسة التى كانت ترقبنا من بعيد وصاحت فى حدة :

ـ ممنوع ٠٠ التقبيل ممنوع ٠٠ حسب الاوامر ٠

واضطرت الى أن تبتعد عنها ٠٠ حسب الاوامر ! وبدأت الفتاة الواهنة تترنح ضعفا وهزالا فى وقفتها المنفردة وصاحت فيها « السجانة » :

ـ إبتعدى هناك ٠٠ وراء القضبان ! ٠

وشعرت عندئذ بنيران الغضب والثورة تعتمل فى صدرى ٠ وأخذت أقوم بعدة اتصالات تليفونية مع السلطات المختصة فى باريس ومع الادارة الإقليمية للسجون ومع قاضى محكمة كابان المسيو شوسيرى لابريه ٠٠٠ كنت أصيح فى كل هؤلاء والدموع تكاد تطفر من عينى :

ـ جميلة أليس لها الحق فى أن تقبل أمها ٠٠٠

فيردون على جميعا :

ـ ممنوع ٠٠٠ التقبيل ممنوع ٠

فى هذه اللحظات بدأت جميلة تعانى من انهيار جسمى وعصبى فلم تعد تتحمل أكثر من ذلك ٠ وانخرطت فى بكاء مرير متواصل ولكنى ٠٠ لم انس مغادرة جميلة فى حجرتها المذرية فى سـجن ليزيو لم أنس أن

أحرر مذكرة بكل ماراأيته من اهمال وسوء رعاية وقسوة معاملة فى هذا السجن وأرفعها لوزارة العدل • وفى مساء نفس اليوم صــدر أمر بنقل جميلة من سجن ليزيو الى مستشفى كابان • ولم تعد اليه مطلقا بعد ذلك

***

كان من المقرر أن يحدث فى هذه المأساة المؤلمة التى مرت بها جميلة كما يحدث فى كل مأساة مثلها •• أى ما لم يكن متوقعا !•

وقد حدث الأمر الغير متوقع فى مأساة جميلة ! ••• حدث عندما وصلت عقدة المأساة الى ذروتها • حدث فى ٧ نوفمبر !•• حدثت المفاجأة التى قلبت كل المؤامرات والتدبيرات والخــدع التى كان « المتهمــون» يحيكونها ، رأســا على عقب •

المكان قاعة محكمة كابان •••

الحاضرون قاضى محكمة كابان المسيو شوسيرى لابريه جالسا أمام المنصة • وعلى مقربة منه أخذ كاتب الجلسة يداعب آلته الكاتبة بأصابع سريعة محمومة حسب ما تسمعه أذناه من كلام وتنقله اليها والآلة ترسل صوتا رتيبا متقطعا ساخرا من هول ما تشعر من حقائق •• وفى وسط القاعة وأمام منصة القاضى وقفت الشاهدة •••

والشاهدة هى •••

زينب العمروسى !•• زينب التى ذكرنا قبل ذلك انها لم تكن سوى «جاسوسة يستعين به العسكريون الفرنسيون للتجسس على ضحاياهم الجزائريين المسجونين !••• زينب العمروسى التى باعت ذمتها أكثر من مرة ووقفت أمام قضاة الجزائر بعد أن أقسمت اليمين على صدق قولها، وقفت لتؤكد ان جميلة لم ينلها أى تعذيب أو ارهاب ، وانها كانت تجــد معاملة حسنة من « جلاديها الضباط ••• زينب العمروسى التى أكــدت أثناء محاكمة جميلة أمام محكمة الجزائر انها لم تلاحظ عليها أثناء اقامتها معها فى زنزانتها أى أثر من آثار التعذيب زينب هذه وقفت هذه المرة أمام قاضى محكمة كابان •• لتفضى اليه بالحقيقة ••

قالت للقاضى انها قد أرغمت على الادلاء بما أدلت به من أقوال كاذبة عن جميلة أثناء محاكمتها • قالت له انها كذبت فى كل ما قالته لقضــاة الجزائر بخصوص جميلة •• وقالت له ان جميلة عذبت •• عذبت بأشنع صورة يتصورها العقــــل •• قالت له انها أحضرت ذات مرة الى الزنزانة التى كانتا تقيمان فيها معا وهى مضرجة بالدماء ، وملابسها الداخلية قد تحولت كلها الى لون أحمر قان من هول ما سال عليها من دماء •• وان أحــــد الحــــراس القاها فى هذه الحـــالة فى احد اركـــان الحجـــرة وهو يقـــول لها فى وحشـــية ســـــاخرة :

«وهذا هو خروف العيد» وقالت انها استمرت طيلة ثلاثة ايام كاملة بعد هذا الحادث تعنى بجميلة التى فقدت وعيها طوال هذه المدة •

وعندما سألها القاضى عن أسماء الضباط الذين كانوا يصحبون نقل جميلة الى زنزانتها بعد حادث الاعتداء الوحشى اجابتــه دون تردد « الليوتنانت » والضابطان «ت» و (ج) .

وهنا أراد القاضى أن يتعمق فى الحصــول على الحقيقة فاخرج لها مجموعة كبيرة من الصور وطلب منها أن تشير الى واحدة منها ففعلت ذلك بسرعة وبدون تردد . وأردفت قائلة « انني اقوم بالشهادة من اجلهم حسب اتفاق بيننا لانهم كانوا يعدوننى دائما بالافراج عنى وبالتغاضى عما ألصق بى من تهم » وكانت زينب متهمة بالسرقة .

وبالفعل عندما قامت زينب قبل ذلك بالادلاء بشهادتهــا الملفقة أمام القاضى تورمانتانى بالجزائر ، بتاريخ ١١ يونيو سنة ١٩٦٠ ، فى خلال هذه الشهادة الزور قالت زينب للقاضى تورمانتانى أن جميلة كانت مرحة سعيدة أثناء اقامتها بالسجن !.. وانها كانت تبدو عليها دلائل الجنون والخبل فى كثير من الاحيان .

وبالرغم مما أدلت به زينب من شهادة ملفقة أمام محاكم الجزائر فقد كانت جميلة مصرة على احضارها الى باريس لكى تقدم شهادتها مرة أخرى أمام قاضى كابان . وكانت جميلة تقول :

ـ ان زينب لم ترنى منذ أن غادرت مركز التعذيب وأعتقد انها عند مجابهتى هنا لن تستطيع الكذب ...

وبالفعل كشفت زينب عن حقيقة الدور الذى كانت تقوم به معرجال البوليس عندما علموا باستدعائها للشاهدة فى محكمة كابان ببــاريس فحضروا اليها فى السجن فى ليلة ٣ نوفمبر وقالوا لها حرفيا :

« .. عليك للمرة الثانية أن ترددى امام محكمة كابان ماسبق أن طلبنا منك قوله : « جميلة مصابة بالخبل والجنون .. »

فأجابتهم بالموافقة . وهنا هددها واحد منهم قائلا :

« حذار .. حذار .. لو غيرت ما سبق أن شهدت به .. فمن السهل عندئذ أن تصبحى فى عداد الاموات .. ومن السهل أن يلحق بك جميع أفراد عائلتك فى العالم الاخر »

وفى الواقع ان منظر زينب وهى تقص هذا الكلام كان يدعو الى الشفقة والعطف .. كانت لاتعدو ان تكون فتاة صغيرة حطمتها وأرهبتها أهوال الحرب .. وكانت ترتجف هلعا مما قد يوقع بها من أهــوال وعــذاب جديدين .

وفى هذه اللحظة كانت تنظر الى جميلة بعيون فياضة بالاســتعطاف والاسترحام وكانت عيناها الحزينتــان الدامعتان تقولان لها ... (هل تغفرين لى ؟ .. أرجوك ..

أما جميلة فان كل ما علقت به بعد سماع أقوال زينب « ليس لدى ما أقوله بخصوص ما ذكرته زينب فهو شيء من الحقيقة وكنت دائما أذكر الحقيقة فى أقوالى » .

وقد حضرت وشاهدت ايضــا كل من الســجينات الجزائريات اللاتى كن نزيلات سجن جميلة بالجزائر وسمعن عن أهوال ما لاقته من تعذيب وهن زكية المهداوى وزليخة بن زين . وقد أكدتا ما قالته زينب .

أما والدة جميلة فكانت تقف ساعتئذ وراء المجفه الطويلة التى ترقد عليها ابنتها أثناء حضورها الجلسة .. كانت امارات السعادة تتراقص فى عينيها وهى تمسح على شعر جميلة فى حنو وحب دافق . كانت تكلمها فى صوت قوى صادق النظرات عن الجزائر .. وحركة النضال فى سبيل الاستقلال ثم ترطب لها وجهها بين حين واخر بقليل من قطرات «الكلونيا» .. وتقول لها فى نبرات دافقة « سنكون قريبا أحرارا » ..

وفى هذه اللحظة خيل لى أننى قابلت هذه الأم الباسلة قبل ذلك .. قابلتها فى احدى القصص البطولية التى لا تنسى .. قابلتها فى شخصية امرأة متقدمة السن .. مليئة بالشجاعه والوطنية .. متشبعة بتقاليــد مبادىء وطنها .. قابلتها فى شخصية «بيلاجى» فى قصـــة « الام » لمكاســيم جــوركى .

وفى اليوم التالى ذهبت ثانيا الى قاعة المحكمة حيث تعقد جلســة لسماع أقوال الدكتور «ب» أو الطبيب الشاب الذى سبق أن حدثتكم عنه والذى حضر ذات مرة لمعالجة عبد العزيز بوباشا من آثار الجروح والكدمات التى أصيب بها أثناء التعذيب فى سجن البيار والذى سأل عبد العزيز أثناء تطبيبه عن سبب الصراخ المتعالى من احدى حجرات السجن ، فأجابه عبد العزيز بأنهم يعذبون أحد المجاهدين »

وأمام القاضى قام هذا الطبيب بوصف سجن البيار او بمعنى اخـر مركز التعذيب بالجزائر . وذكر أيضا انه قام بمعالجة جميلة ذات مرة قبل نقلها الى سجن حسين داى بسبب ما كانت تشكو منه من آلام مبرحة فى الناحية اليسرى من صدرها وكان هذا الجزء من جسمها متورما .

وذكر أيضا انه قام بمعالجتها مرة أخرى فى سجن حسين داى أى عندما مرت بعملية تعذيب المرحلة الثانية وكانت تعانى عندئذ من أوجاع وآلام شديدة فى أسفل بطنها ..

وفى اليوم التالى قام القاضى شوسيرى بالاجراء النهائى للكشـف عن شخصية الجناة الجلادين .

وعند افتتاح الجلسة أخرج من مكتبه الملف الذى يحتوى على صور العسكريين الذين ساهموا فى عمليات التعذيب والتى كان قد أرسل فى طلبها من السلطات المختصة بالجزائر .

ووضع القاضى ٩ صور أمام جميلة وطلب منها أن تشير بأصبعها الى من تعرفهم . فأشارت جميلة للصورة رقم «٧» وهى لليتنومانت «ر» بسجن

البيار ثم أشارت الى الصورة رقم «٢» للضابط «ت» الذى يعمل بمركز التعذيب وقام بقية الشهود بعدها بالتعرف على نفس الجلادين ..

وانتهت الجلسة . ليكتب القاضى تقريره الخاص بالتعرف على صور بعض المتهمين والذى ينتهى بالجملة الآتيه :

« وتم التعرف من كل الشهود على صور اثنين من المتهمين فى قضية التعذيب وحتى تتمكن السلطات بالجزائر من التغلب على الصعوبات التى تواجهها فى عملية ارسال صور « بقية المتهمين » ترفع الجلسة ؟..

وبذا قام هذا القاضي بكل ما بذله من جهد وتحقيق نزيه وتنقيب عن الحقيقة ، قام باعلاء كلمة الحق والعداله . قام بتوجيه تهمة التعذيب والارهاب الشائن الى الجناة الحقيقيين ، وفضح حقيقتهم على مسمع من العالم اجمع .

وما زالت الاجراءات جارية للكشف عن حقيقة « الجناة » ولتحديد مسئولية «المجرمين الحقيقيين » ..

كتب ثقافية

تقدم

هذا الشعب

عبد العاطي جلال

كتب ثقافية

تقدم

الزوجة الأخيرة

مجموعة مسرحيات اجتماعية

تأليف : فوزي عبد القادر الميلادي
تقديم : عزيز أباظة
لوحات : سيف وانلي

كتب ثقافية

تقدم

المأساة الخالدة

تأليف: جون ريد

ترجمة

الدكتور جمال الدين الرمادي

طبع هذا الكتاب على ورق صناعة شركة « راكتا »

طبع بمطابع
الدار القومية للطباعة والنشر
١٥٧ شارع عبيد بروض الفرج
تليفون ٤٥٣٤٦ — ٤٥٤٠٥ — ٣١٦٢٥



١٥٧ شارع عبيد – روض الفرج
تليفون ٤٥٣٤٦ – ٤٥٤٠٥ – ٣١٦٢٥

العدد ٦ الثمن ١٠ قروش